

كتاب الهلال

أم الرسول محمد آمنة بنت وهب

تأليف
الدكتورة بنت الشاطئ



سلسلة شهريّة
تصدر من دار الهلال



08

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٢٦ : شعبان ١٣٧٢ - مايو ١٩٥٣

No. 26 — May 1953

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) - مصر والسودان
٨٥ قرشا صاغاً - سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا
أو لبنانيا - الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش
صاغ - فى الأمريكتين ٥ دولارات - فى سائر
أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغاً أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

أمُّ الرسول "محمد"
آمنة بنت وهب

تأليف
الدكتورة بنت الساطي

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

« ائنا انا ابن امراة من
قريش تاكل القديد »
محمد رسول الله

ساجاة

أما « آمنة » ...

ما تلوت من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه
الجهير عن بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ »

الا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذى حملته
جنينا فى أحشائك ، ووضعتة كما تضع كل أنثى من
البشر ...

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجلا »

الا تفهيت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة
التي أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التي
قامت عن « عيسى بن مريم » الذى قالوا انه اله ، وهى التي
جاءت « بمحمد بن آمنة » رسول الله وخاتم النبيين

وهذا صوت وحيدك يملاً سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر
كبرياء الملوك ، ويسمو بأموثك الى أفق لا يتناول اليه

تurf الغنى ولا جاء المادة ، اذ يجعل منك أيتها الأنثى
الودعة المتواضعة ، والألم الطيبة الروم ، مبعث أنسه ،
وروح إنسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه



أما « آمنة » . . .

هو أبداً مجد الأمومة الذى خلد واهبات الحياة على الدهر،
وصانعات التاريخ منذ الأزل وإلى الأبد ، وقد توجك
وحيدك العزيز بتاج سماوى من هذا المجد الأزل الأبدي ،
حين هتف قائلاً :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبداً فخر الأنوثة التى حمت سر الوجود فى هذا
الكون ، وحفظت حياة الإنسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت
أجنة البشرية وهنا على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ
قلب ولدك ، حين أوصى الذى سألته عن أحق الناس
بإكرامه: أكرم أمك، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك، ثم . . .
أباك ؟ !



أما « آمنة » . . .

عن مجد الأمومة فيك ، وبطولة الأنوثة منك ، جئت
أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الإنسانية

بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته في أرجاء الأرض على مر
الزمن ..

يقيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصول الإنجاد ..
فقير ، حيث باسمه الدنى وفاضت الحيرات
وماذا كنت تبغين من ذلك يا أماء ، لو أنك كنت ملكة
متوجة ، أو فارسة مغوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة
قائدة ثم لم تلدى « محمدا : رسول الله » ؟
وأى عمل لك يا أماء أجل وأمجد ، من أنك كنت المنجبة
لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟



وهاندى أقف خاشعة أمام صورتك ، وقد خفت بها من
أمومتك أضواء باهرة السنا ، فيكاد جلالك يشينى عن
اطالة النظر اليك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد »
الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتراف
منه ، آية عظمتك وسر خلودك !

الكتاب الاول

سيدة الأممات

١ - هذه السيرة ومصادرها

٢ - أنوثة وأمومة

٣ - أمهات الأنبياء

هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة في درس سيرة السيدة «آمنة» وأنا أعي أتم الوعي، نقص المصادر والاخبار التي تحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكنني لم أجزع لذلك ، اذ قدرت أني انما أحدث عن والددة الرسول العظيم ، وأم البطل الذي هو في حساب الحياة صفوة جنسه وخلصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها ، في صورة ابنها العظيم الذي أوته أحشاؤها ، وغذاه دمه ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذي خلفته « آمنة » فليس بعجيب أن أراها في ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمي لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثلا في ولدها العظيم

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل في أصلاهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التي اعتز بالانتساب اليها في مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سليم »



ثم كان لي الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء «آمنة» وأجدادها نساء ورجالا، وما حفظ لنا من طابع البيئة التي نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الانوثة والامومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الاسباب وتناسق الاصول ومجرى الوراثة ، وفي هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتھا دنيھا ، وصنعتھا بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت في عروقها دماء الاصول الاولى ، ونمتها العوامل التي تركت طابعها الخاص في كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان

أجل هي ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتبس جذورها الاصلية الممتدة في أعماق منبتها وأعراق آلهة ، وأن يستبين ملامحها ومعارفها في الهواء الذي تنفسته والجو الذي عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبول لاكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذي أصر على الاعتراف ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التي فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل

ولدها كائنا عجبيا لم ينمه عرق ، ولا أمدّه أصل ، ولا غذته
وراثه ، ولا نهضت به بيئة ٠٠



على أنى حين مضيت فى تتبع الأصول البعيدة لآمنة ،
ولمخ المشخصات الواضحة لدنياها ، ألفت الى جانب
ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا
من آثار أخرى ليست من ذلك الصنف الأول ولا هى من
واديه ٠٠٠ آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ،
اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا
الى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس
بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادى من عالم نفسى ،
وتكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع
تلك الآثار ، هى ما خلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة »
صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من
قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى
ذلك ولا مانوا ، ولا خدعوا ولا خانوا ٠٠

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به
الدرس المنهجى وراء سور الوجدان ، وبعيدا عن عالم
القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء
ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل ، أو يقال هناك
بلسان العاطفة والايمان ٠٠

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا

يجوزان على صواب ولا يتهمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبثا الوراثة ، مستلهما البيئـة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحسب الواقى والمؤمن الواصل ما قال بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لا يسئ الى الواقع الخارجى فى شئ ، لانه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة، وما عشق من بطولة، وما أحسن من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاخمه فى آفاقها أحد مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ...



وأحسبني بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة «آمنة»، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بروايات أخرى قد يقرأها الدارس بعين العلم فيجزم، أو يسمعها المؤرخ باذن التحقيق فيبرم، وينسبـه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شاعت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقتهم التعبيرية وتأملاتهم

الروحية ، فقدموا لنا بذلك كله صورة « آمنة » في نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها اليها ، وكيف تمثلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها فى الأدهار وسارت على الأجيال

فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها - تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحسدين من أساطير الأولين - تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه ينتزع تحليلهم النفسى لشخصيتها . . . وأنى للمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟



وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيات القارئ لفهم هذا المنهج: لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملاحم العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب »

وثانى الأمرين مما عمدت اليه فى هذه السيرة ، هو

ما يحلو لكثير من الدارسين - والمستشرقون منهم بخاصة - أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك الأساطير ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسى للأحداث ، معيناً لى على تبين شخصية «آمنة» وتقديرها تقديراً يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها . كما كان الذى روه من أحلام «آمنة» ورؤاها ، أو تصوره من آمانيها وآمالها ، صوراً نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأُمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وإن بدت فى صورة الخيال المجنح ، والسر القصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال



انوثة وامومة

« تخبروا لنطفكم
فان العرق دساس »

حديث شريف

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ،
قبل أن نلم بمكانة الام فى الجزيرة الى عهد « آمنة »
ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت -
فى خير حالاتها - متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف
الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام . وعلى الرغم
مما نقل اليها من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى
الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين
والقرون ، الا أن تلك الأخبار لم تدع فينا كما ذاعت
الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقال
الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من
مظاهر الضعة والهوان



ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى
تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدماء

لم يضمنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من ماثرها ،
وكل عملنا هنا ، أن نختر من ذاك الذى سجلوه ، بعض
ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الانوثة والامومة فى الجزيرة
قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما
لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن
منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء ، وافتديت
بالمهج والأرواح ..

ويعيننا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالامومة أو كان
منها بسبب ، لنلمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من
فضل فى انجاب خاتم الرسل والأنبياء ، وما كان لها من
أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »



يروع الذى يتصل عن قرب بما كتب الاقدمون عن
الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم
النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم
« أكنتم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فان
المناكح الكريمة مدرجة الشرف »

وقال شاعرهم :

وأول خبث المساء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :
« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » . قيل له :
« كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمهها فانها تجر
بأحدهما »

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا » .
قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب :
« اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها »
ومثله ما أنشده « الرياشي » :

وأول احسانى اليكم تخيرى
لما جدة الاعراق باد عفافها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا
كراحتهم للسبأ

حدثوا أن « فاطمة بنت الحرشب » رمت بنفسها من
الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهي تردد المثل :
« المنية ولا الدنية »

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه
أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر . من ذلك
ما رووه من أن رجلا من العرب استبى امرأة فولدت له
سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرني أهلى لينذهب عني
ذل السبأ »

ففعل ، فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجهما
وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن « المدينة » • وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما: « ألا ترى ولدك يعيرون بأهمهم ويسمون بنى الاخيزة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها وهو لا يشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه

وخرج بها فحج ثم عرج على أهلها زائرا فتحايلا عليه بالخمير حتى رضى أن يخبروها بين الإقامة فيهم والعودة معه، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما انى لا قول فيك - وان فارقتك - الحق: والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة • لكن ، ما مر علىّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الى من الحياة بين قومك ، لانى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا • والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقوني الحمر ثم تكنفوني (١)
عادة الله من كـذب وزور

ولا أكاد أعرف - فيما قرأت - أمة قديمة بلغت كرامة
الأمومة عندها ما بلغتـه عند العرب ، وقد روى
«المبرد» في « الكامل : ج ١ ، ص ٢٥١ » أبياتا للسليـك بن
السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد
أذهبن الرق وأزرى بهن التبذل، مع قصور يده عن افتدائهن
جميعا ، كرامة لأمه - وكانت جارية حبشية - فذلك قوله:

أشباب الرأس أنى كل يوم
أرى لى خالة بين الرجال
يشق على أن يلقين ضيما
ويعجز عن تخلصهن مالى



ولاُبناء العقائل الكريمات حديث - أشبه بالقصص - عن
حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالهـج والأرواح ، ولعله
يكفيـنا هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب (الأغانى)
من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :
« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟ »
فقالوا : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ »
قالوا : « لأن أباهـا مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل
أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها

(١) الاغانى ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب

عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتهم «
فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم »
يستزيه ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فأقبل « ابن كلثوم »
من الجزيرة في جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلي » في
ظعن منهم

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة
والقرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل
« ابن كلثوم » رواق الملك ، وأدخلت « ليلي » الى « هند »
في قبة من جانب الرواق ، وكان بين الاثنين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم
إذا دعا بالطرف ، وتستخدم « ليلي » ، فلما فعل قالت « هند »
لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

— ناوليني يا ليلي ذلك الطبق

فالت « ليلي » في نفور :

— لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذا ذاك صاحبت ليلي :

« واذا له يا لتغلب ! »

فسمعها ابنها فثار الدم في وجهه وانتفض انتفاضة
المحموم وقال :

« لا ذل لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف
غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند » ، ونادي في
بنى تغلب فانتهبوا ما في الرواق

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة
مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجل علينا
وأنظرنا ، نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة (عمرو بن هند)
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا !
متى كنا لأمك مقتويننا ؟
وهو القائل أيضا :

على آثارنا بيض حسان
نحاذر أن تقسم أو تهونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا
لشئ بعدهن ولا حيننا

ثم لم تكتف تغلب برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم،
بل قام « مرة بن كلثوم » - أخو عمرو - بعد ذلك وقتل
ولد النعمان ، وأخاه ، ليطفىء جذوة من الغضب هاجها
تعمد المهانة لأمه

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم
وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمر بن هند »
مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ...

قال الفرزدق :

* قوم هم قتلوا ابن هند عنوة *

وقال صريم التغلبي :

لعمرك ما « عمرو بن هند » وقد دعا

لتخـدم « ليلي » أمـه بموفق

فقام « ابن كلثوم » الى السيف مصلتا

فأمسك من ندمانه بالمخنـق

وجلله « عمرو » على الرأس ضربة

بنـى شطب صافي الحديد رونق

وقال « الأنـخل التغلبي » لجريـر يفخر « بعمرو ومرة :

ابني كلثوم » :

ابني كليب ان عمي اللـذا

قتـلا الملوك وفككا الأغـلالا

الى مثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الامومة ، وما تمنع أن تكون حادثة « ليلي أم عمرو » من أقاصيص السمارواضافات الرواة ، لكنها لن تفقد - في أى وضع رضيناها لها - دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الامومة في الجاهلية



وقد شهد الرواة - الى جانب هذا - للام العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب في عظمة بنيتها، فهم يذكرون - فيما روى «القالى» بالامالى ج ١١٨/٢ طبعة بولاق - أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

تكلت نفسي وثكلت بكـرى
 ان لم يسد فهرا وغير فهـر
 بالحسب العـد وبذل الوفـر
 حتى يوارى فى ضريح القـبر
 وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة
 ابن سلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هـشام
 قـوم وآباء له كـرام
 ججاج ، خضارم ، عـظام
 من آل مخزوم ، هم الاعلام
 الهامة العلياء والسنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائي » انما ورث الجنود عن
 أمه ، ويروى صاحب الاغانى (٩٣/١٦) أنها كانت
 لا تبقى على شىء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنها
 مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة
 من ابلها، فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت
 أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذوها ،
 فوالله لقد عضنى الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قدما عضنى الجوع عضـة
 فآليت ألا أمنع الدهر جاععا
 فقولوا لهذا اللائى : اليوم أعفنى
 وان أنت لم تفعل ، فعض الاصابعا
 فماذا عساكم أن تقولوا لاخـتكم
 سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟

وماذا ترون اليوم الا طبيعة
فكيف بتركى يا ابن أمّ الطبايعا ! ؟



كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب في الجزيرة،
فشادوا بذكر « المنجيات » من عقائل العرب ، مثل :
- فاطمة بنت الخرشب : أنجبت الكلمة لزياد العبسي ،
وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ،
وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : أى بنيك أفضل ؟

فبان عليها التردد وهى تقول فى حيرة :

« الربيع ، لا ، بل قيس » ثم هتفت : « ثكلتهم ان كنت
أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها »
- وأم البنين، ابنة عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر ،
أنجبت له : ملاعب الاسنة، وطفيل الحيل ، وربيع المقترين ،
ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء !

- وخبيثة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة عشرة :
خالدا ، ومالكا ، وربيعا

- وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن
قصي : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب

- وريحانة بنت معديكرب الزبيدي - أخت عمرو بن
معديكرب - كان « الصمة بن عبد الله الجشمي » سبها ثم
تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله ، وعبد يغوث ، وقيسا ،
وخالدا

وياها عني أخوها « عمرو » بقوله :
 أمن « ريحانة » الداعي السميع
 يورقني وأصـحـابي هـجـوع
 اذا لم تسـطـع شـيئا فدعه
 وجـاوزه الى ما تسـطـيع

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الامومة ، وما كان من
 اعزازهم لها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها ،
 نزع الى أمه وآثر الانتساب اليها ، كبنى « الحنـدف » - وهى
 ليلي بنت عمران القضاية ، زوج الياس بن مضر - وعنـها
 انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسـد
 وأم « الحنـدف » ، هـى « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى
 ينسب اليها « حمى ضرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة
 « بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان
 وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبـدية ،
 ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول
 ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ،
 والمناذرة بنى « ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم
 وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبار الرجال
 بأمهاتهم ، قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب
 ابن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضـل
 قصى « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى « ابن لبنى » فانه
 قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر

وأملك سر من خزاعة جـوهر
إذا حصل الانساب يوما ذرو الحـبـر
الى سبب الأبطال تنمى وتنتمى
فأكرم بها منسوبة فى ذرا الثـزهر
وقال « بشر بن أبى حازم » يمدح « أوس بن حارثة بن
لام » :

الى أوس بن حـارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقد قضاها
فما وطىء الحصا مثل « ابن سعدى »
ولا لبس النعال ولا احتـذاها
ولهذه الأبيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما
للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم • حدثوا أن قوما
أغروا « بشر بن أبى حازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه
بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاة بالغـا
ما بلغ ثمنه ، فلما جرى به خيره بين قطع لسانه وحبسـه
حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخليه سبيله
ثم دخل « أوس » على أمه « سعدى » فكرهت رأيه ،
وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملا « بشر » عراض الآفاق
بمدائح فى « ابن سعدى »



ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليل
الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام فى السيرة » :
١٣٩/١ « عن دور المرأة فى حلف المطيبين الذى كان بين

بنى عبد مناف ومن انضموا اليهم فى خلافتهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأخلافهم فى المسجد عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله وتوأمة أبيه »



وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

نعرف هذا ، لكننا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا - غالبا - الى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا عن ذكرهن، وتكفى المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب، والاعتزاز بالاصالة ، والمباهاة بالخطوة ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع

« جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان »
قائلا :

فما الأم التي ولدت قريشا
بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم
وما خال بأكرم من تميم
قال ابن هشام (١): « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت
تميم بن مر ، أم النضر - والنضر هو قريش في قول ،
ويقال بل فهر بن مالك هو قريش »
وما من قارئ يتتبع مساق (النسب الزكي) في السيرة،
الا عجب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع
الأصول وتبعد

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم
وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا
أن يثدوا بناتهن ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون
أن يكون لها من أمرها شيء



على أنا لا نريد أن ننفي شيئا من هذا الذي قيل عما لحق
بالمرأة العربية - في بعض الحالات - من ظلم أو استبداد،
لأننا ان فعلنا ، نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به
العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة
ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالمؤودة اذا سئلت ،

(١) السيرة ٩٦/١

بأى ذنب قتلت . وهذه كتب التاريخ العربى حافلة بما كان من ذاك ، لكننا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بما تهرهن، الى ما روى عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن، لرجحت الاولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن (نهضة المرأة) و (حقوق النساء) بقرون ودهور



امهات الانبياء

بقى هناك أروع ما يقال عن الانوثة والامومة ، فى كتاب
« آمنة أم النبى العربى »

بقى أن نرجع الى الأديان السماوية الكبرى لنرى
(الأمهات) فى حيوات الانبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا
أزكى الصلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم — عليهم السلام — قد عهد
بهم فى طفولتهم الى الأمهات وحدهن دون مشاركة
الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت
الى جانبه فقد الأب أو غيابه ، غير انا نرى الأمر طبيعيا
لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق ، اذ الامومة فى عاطفتها
الجياشة وايسارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب
الرسالات الدينية التى تقوم على الروحانية ، وما كانت
السماء لتجحد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى حملها
أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها
فى غير موضعها العتيد : « سنة الله التى فطر الناس عليها ،
لا تبديل لخلق الله »

أم اسماعيل

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى
 زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ،
 فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم
 من الثمرات لعلهم يشكرون »
 (قرآن كريم)

هذه (التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل »
 فى تفصيل مسهب ، وهذا (القرآن) يشير اليها فى مواضع
 شتى على أسلوبه المختار فى القصص . ويا لها من قصة
 الامومة فى أروع مواقفها وأعنف مشاعرها ! لقد أراد الله
 أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من
 الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى
 تكون لهفتها على الصغير والالء الذى ذاقته حين رآته يكابد
 حرقة الظما ، ومسعاها المثير فى سبيل نجساته ، حديث
 التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الامومة وتتقدس
 آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة !
 ومن « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة
 سارة : زوجة ابراهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة
 ٢ - آمنة بنت وهب - ٣٥ -

الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا
بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد
وهى عاجزة عن أن تهب زوجها ولدا ، ثم ٠٠٠ بدا لها أن
تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى
الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى
حواء من غيرة ، وخيل اليها أن أمتها صارت تنظر اليها
نظرة فيها مباهاة ورثاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة
شاكية تقول :

— أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملت ترفعت على !
فرد عليها ملاطفا :

— هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين !

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل
محاولتها الأخيرة فى احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت
« هاجر » مولودها ، نفذ صبر السيدة وغلب احتمالها ،
فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر
الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »
وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى اذ ذاك مقفرة خلاء ،
لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحل ، وقوم من العماليق
كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا
لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم هم بالرجوع من حيث جاء ، فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذى نبذه وأمه بالعراء

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شئ » وهو منصرف عنها منطلق فى سبيله لا يلوى على شئ ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منحرج الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى وهن ولهفة :

— الله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

— أجل

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

— اذن فالله لا يضيعنا ...

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيبته ثنية الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل :
« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من

الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون-
ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء
فى الأرض ولا فى السماء »
ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »



وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأئس والعزاء،
وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت
بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر
بوحدها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الإدراك
قسوة موقفها ذاك فى الوادى الأجرد ، بين الصخور
الكالحة والجبال الغبراء

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش
الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..
وحين أعيها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد
الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فإذا
« الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى
تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟
فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة
تسعى سعى المجهد ، وصعدت عليها ترى أثرا من حياة ،
ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة »
سبع مرات حتى نال منها التعب والإعياء ، فتهاتوت على

الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ،
شبهه يائسة ٠٠

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها
الظالم يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة
تتسرب منه وتخبو رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله
أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا
عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :
« لا أنظر موت الولد »

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث
المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما فى البلقع
الفقر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسعار السباع
الجائئة المحومة على المكان ، كأنها ترقب الحفقة الأخيرة فى
فريستها المنتظرة

ثم ٠٠٠ كانت النجاة

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس
موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت فى كيانهما ،
وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ٠٠٠

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ٠٠

قالوا : « ومرت رفقة من «جرهم» مقبلة من طريق «كداء»
تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فراوا طيرا فقالوا : ان
هذا الطير لحائم على ماء ! لعهدا بهذا الوادى وما فيه ماء ٠٠

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدتهم عما رأى ، وتبعوه حتى
أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها ٠ فقالوا لها :

ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك
 « فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة »



وخلدت « هاجر : الامة المنبوذة » صورة مؤثرة مثيرة
 للامومة في حنوها وآلامها وهمومها ...
 وعاش ولدها اسماعيل - ذاك الذي رعته وحدها حين
 تركه أبوه في البلقع القفر - ليتلقى مع أبيه رسالة السماء:
 « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهرا بيتي
 للطائفين والعاكفين والركع السجود - واذ قال ابراهيم :
 رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن
 منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم
 أضطره الى عذاب النار وبئس المصير - واذ يرفع ابراهيم
 القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت
 السميع العليم - ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة
 مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب
 الرحيم - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك
 ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز
 الحكيم »

أم موسى

« ٠٠ وأوحينا الى أم موسى أن
أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه
في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، انا
رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »
(قرآن كريم)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد «موسى» ،
وانما يخص بالذكر أمه ، ويكل إليها أمر حمايته وليدا
ورضيها ، حين استبد فرعون ببني اسرائيل فأذلهم
واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب

وتقول الرواية (١) : انه رأى فى منامه رؤيا أفزعته
« فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ،
فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام
يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك من
أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه »
فجن غضبه وقلقه ، وأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى

(١) راجع (قصص الانبياء) للامام الثعلبى . ص ١٧٣ و ١٧٤ ط
السعيدية

اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء فى أنحاء المملكة
 وولد «موسى» اذ ذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه
 سبعين ألف ولد على ما يقولون (١) - فارتجفت أمه رعبا
 وجزعا ، وأشغقت عليها القابلة فوعدها أن تكتم الامر .
 ويضيف بعض الرواة أنها - أى القابلة - لم تكذ تنظر الى
 الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن
 تسلمه الى الذبح

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم «موسى» حتى
 أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا
 يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم اخته
 «مريم» فهمست جازعة :

- أماء ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، لفت الأم ولدها فى خرقة والقتته
 فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكذ تودعه
 هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية
 السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون
 الدار فى جد وهدوء

وسألها الحراس فى فظاظة :

- ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكنتها :

- هى مصافية لى ، دخلت على زائرة

(١) المرائس للثعلبى : ١٧٥

فانصرفوا ، ودارت عيننا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا
صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته



وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ،
وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقدفيه
فى التابوت فاقدفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه
عدو لى وعدو له » .

واستجابت الأم لوحى السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت
فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت
وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها
الى النهر ؟

اغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك
على ضفة النيل ، وقد تعلق عيناها بالتابوت الذى يضم
الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الامواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت
عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها ، فتنبهن فجأة الى
أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكان اشتغالها بالفرار
به من عذاب الطاغية ، قد صرفها عن التفكير فى أى شئ عدا
النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الاوان ، أنها خلصت
وليدها من سكن الظالم ، لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » فى (قصص الانبياء : ص ١٧٤) :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتأها الشيطان
فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟
لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الى من أن ألقيه بيدى
فى البحر وأدخله الى دواب البحر »

وانى لا تمثلها الآن وقد لبثت فى مكانها على الشاطئ
لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى
... حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هناك ،
وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الأم
المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادى الغائب العزيز ...

ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت
لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعية
خاشعة



ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضة
عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمح
التابوت حتى التقطه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية » :
امراة فرعون « وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر
ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى « آسية »
وجها مشرقا بابتسامة وضيئة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يتفتح له ،
كأنها هو قطعة منها :

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هدية يقدمها القدر الى
أمومتها المحرومة ! !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ،
يطلبون الصبى
قالت آمرة :

— انصرفوا ، فان هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل ...
ثم لما رأت ترددهم ، خفت من صرامتها وقالت :
— دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه اياه ، فان
فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلا ألومكم ..
وجاءت « فرعون » فهتفت به :
« قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولدا »

فكان جوابه :
— قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه
ثم استدرك بعد لحظة :

— لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هذا من بنى
اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده
فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ،
وعادت به الى جناحها والدنيا لا تسعها من فرط غببتها



وهناك فى (حى المنبوذين) ، كانت « أم موسى » تضع
يدها على قلبها الذى ما فتئ يخفق ملحا فى طلب النائى
الغالى

قالت لاخته :

« قصيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحي هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضيعا ، يابى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى « أسية » يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى احدهن -

هنالك لاذت « مريم » بكل ما فى طاقتها من شجاعة كي تدارى مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شيء مما كان يخالجهما :

« هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ »

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

« ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

« بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

« لعلك تعرفين أهله ، والا فما يدريك أنهم له ناصحون؟

فهزت رأسها قائلة :

– الأمر أبسط مما تظنون ! كل ما هناك أنى أعرف فيهم
الرحمة وطيب الخلق ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضارة
الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى
وحدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على
قلب أم !

ولمحت ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق
قلبها المشوق فتتم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة
متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، وألصقته نديها ..

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء « موسى »
للمراضع جميعا ، اذ رأوه يلقف الثدي فى لهفة الظامى
يجد ريا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل « آسية » اليها يصحبون
« موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما

قالت فى غبطة :

– هلا مكثت عندي يا ظئر لترضعى ابنى هذا الحبيب ١٩

فأجابت الأم :

– بل ان شئت يا سيدتى صحبتته معى الى بيتى أرضعه
وأرعاه ، فانى أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا
.. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف
من « امرأة فرعون » فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها،
لكننا لا نعجب لذلك ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف

ما دام ولدها قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف
تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به
الى دارها كي تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا
عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يرببهم حنوها الغامر على
الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مرة :
اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتخنق مشاعرها الطبيعية ،
كيلا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لامومتها
به بعد الذى كان من عذاب الحرمان

واما أن تترك نفسها على سجيته ، فتدفع ولدها بيدها
الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها
بأن تختار لنفسها وله المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك
يقول « الثعلبى »

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعددها ، فتعاسرت على
امراة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده »
ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا
على حياة الوليد ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها . . .

فذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل
أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم
ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين . . . »

و « أوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه

فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك
وجاعلوه من المرسلين - فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا
وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين -
وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن
ينفعنا أو نتخذة ولدا وهم لا يشعرون

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا
أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين - وقالت لأخته :
قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون - وحرمنا
عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت
يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ - فرددناه الى أمه كى تقر
عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم
لا يعلمون - ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما
وكذلك نجزي المحسنين »

وقوله تعالى فى سورة طه :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى - اذ أوحينا الى أمك
ما يوحى - أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليلقه
اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة
منى ولتصنع على عيني - اذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم
على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ،
هكذا نزل الوحى على « أم موسى » وعهدت اليها السماء
بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات
الكبرى ، من المذبحة التى لم ينج منها غلام لبنى اسرائيل
اذ ذاك !

أم المسيح

« ٠٠ اذ قالت الملائكة يا مريم
ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه
المسيح عيسى بن مريم وجيها في
الدنيا والاخرة ومن المقربين »
(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ؟

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وإنما هو « عيسى بن مريم »
كما دعاه كتاب الاسلام

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبي المسيحية الى
أمه ، هذه الأم التي طهرها الله واصطفها على نساء العالمين
وقصة أمومة « مريم » كما زوتها كتب السماء ، بالغة
التأثير والعنف ، فلقد تعرضت - عليها السلام - لاقسى
ما تتعرض له أنثى : نشأت في بيت دين وتقى ، لأب عالم
شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله
أن تهب ما في بطنها لخدمة الهيكل : « اذ قالت امرأة عمران:
رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت
السميع العليم - فلما وضعتها أنثى قالت انى وضعتها
أنثى - والله أعلم بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى ،

وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم - فقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا
وكفلها زكريا

ذلك أن أباه « عمران » مات وهي صغيرة ، فاختلف
القوم فيمن يكفلها من آله ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها
« زكريا » زوج خالتها

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم
اذ يلقون أقلامهم : أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ
يختصمون »

وأضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء
بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا
ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشرها
« بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجهها فى
الدنيا والآخرة ومن المقربين »

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف
مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« رب أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا -
قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس
ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا »

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى
أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس
رهيب تعانيه عذراء طاهرة الذيل نقية السمعة ! هنالك
أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانا

قصيا ، وأقامت في واد للرعاة هجره رعاته بمواشيهم
التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة
هناك ، ووضعت وليدها فى مذود للماشية ، وهى تقول :
« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »



ثم كان ما لابد أن يكون
أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا
فريا ، يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت
أملك بغيا »

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفرتها وطهرها ، ولا
أنقذها من لعنتهم ما بدا من ولدها الصغير من آيات بينات،
بل رموها بالاثم وقالوا عليها « بهتاناً عظيماً » ، فتلقت اللعنة
صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها وقدره ،
راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعود
بالمجد الأعظم

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصفا
مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكى تنجو به
من الكيد والاذى ، حيث أقامت هناك اثنى عشر عاما ،
ترعاه وتكدهح لتهيب له أسباب العيش ووسائل التعلم

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك التكفاح الصابر ، بل
كتب « الثعلبى » فى (عرائسه : ٤٠٢) : « فأقامت مريم

بمصر ائنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل
فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها ،
والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف
أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى
المؤدب (١) حتى أذن لها فعادت به الى « أورشليم » ليسجد
هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ
مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تلقى الوحى ،
وكاشفها بهوموم الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع
وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ،
فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة
من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليبنى زيتونا ،
وهناك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبي مرسى الى بنى
اسرائيل ، فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب
عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه - أى عيسى -
لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها
بخدمتها

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بنى ، انى نبئت
بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس
« ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته

(١) التعليق : ٤٠٢

الدينية « بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها
للدور العظيم الذى ينتظره
انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الأيام ، آية من
آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »
« وجعلناها وابنها آية للعالمين »



وتأتى « آمنة بنت وهب ، فى ختام هذا الموكب الرائع
لأمهات الانبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل،
والمبعوث بآخر رسالات السماء !



الكتاب الثاني

بيته وورشته

١ - البيت العتيق

٢ - بنو زهرة

البيت العتيق

« ٠٠٠ واذ بوانا لابراهيم مكان
البيت ألا تشرك بى شيئا ، وظهر
بيتى للطائفين والعاكفين والركع
السجود - وأذن فى الناس بالحج
ياتوك رجالا وعلى كل ضاهر يأتين
من كل فج عميق - ليشهدوا منافع
لهم ويذكروا اسم الله فى أيام
معلومات ٠٠ »

(قرآن كريم)

سورة الحج - آية ٢٧ : ٢٨

لبيك اللهم لبيك !

هو الہتاف الخالد ، رددت صدهاء الاتفاق المكية منذ ما لا
يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق »
من كل فج ، ملبية أذان « الخليل » فى الناس بالحج ،
ومستجيبة من بعده لدعاء النبی العربی الیتیم ، الذى
وضعت « آمنة بنت وهب » فى دار « عبدالله بن عبد المطلب
ابن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمئة عام !

يا أذن الزمان الواعية ٠٠٠
ويا عين الدهر الباصرة ٠٠٠
أى السنة للعابدين سمعت ؟
وأى وجوه هنالك رأيت ؟
وأى ألوان من البشر شهدت ؟
وأى ألوية خفقت بين يديك ؟
وأى هامات انثنت لديك ، فى هذه البقعة من الأرض ،
وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السود
والجبال الشم ، منذ جعل « البيت » هنالك مثابة للناس
وأمننا ، وحرما وملادا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه
المروع ، ويحقن عنده الدم المهدر ، وتحمى فى حماه حياة
كانت اذ ذاك مستباحة فى شرعة الصحراء وبضراوة
البيداء ؟ !
« ان أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى
للعالمين »



يا ذاكرة الزمان الحافظة !
عرفت الدنيا بيوتا وبيوتا ٠٠
ورأيت رسوما وطقوسا ، فى شرق الأرض ومغربها ،
وقديمها والحديث ٠٠٠
وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبادا ٠٠

وهذا البيت العتيق بينها كان - ولا يزال - علما شامخا
وصرحا ممردا ، ترامت أضواؤه وأصدائه الى أبعد مما
ترامى اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك
المزارات !

ومن يدري يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت
أوراقها أصابعك الباطشة من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك
البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير
الشان ، ومحط هين الأمر ، يريح فيه المسافرون من طلاب
الرزق قوافلهم فى طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا
وجيئة ، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيون ،
قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق فى قلب الفلاة ؟ !

من يدري يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت
بك قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى
القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موثلا فى جوار
« مكة » يتريثون عنده عابدين ، التماسا للحماية والعون ،
وتزودا بشئ من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى
ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب كانت تلك البقعة من
الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عابدة يرى الناس بينها
وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا
ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتلهين ، قد هانت لديهم
الأرض الا موضعا ، وعز الأمان الا فى مكان ؟ !

كيف نمت معك يا زمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى
مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ،

وتتواصل حضارتا الشرق والغرب ، حين كانت الابل وحدها عدة السير وأداة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة في ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس والهند والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين الاحمر والابيض ؟ !

ليس غيرك يا زمن من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل ، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعاتهم الى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ ، من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفارا ، أنزلها القوم منذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار ، مراجعنا ومصادرنا فى معرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك - الى اليوم - مصادر تاريخية عن ذاك العهد الموهل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الأعراض العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من القضايا الاجتماعية الكبرى

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر، الى أن

تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار
عملية نقيم عليها الدرس التاريخي



منذ متى بدأ التاريخ الديني لمكة ؟

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخي « مكة » الى عهد
« شيت بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها
البعيد غابت عنا فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطة
متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجارى بين
الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت
فى ذلك العهد السحيق موثلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن
منه بد ، تأمينا للراجلين والتجار

ثم تطورت العبادة فى ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها
« ابراهيم » فبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مكة ، أجلى
وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابراهيم »
فى تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجيء
ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه «اسماعيل» وأمه «هاجر»
هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم
فأمسك عليهما الحياة ، وجذب القوافل فى أعقاب الرعاة

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابراهيم » فى تلك
البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى
الى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ،

كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التى عهدت بها
السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز
الدينى والاقتصادى لمكة :

« أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرما آمنا نعجبى اليه
الثمرات ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخضع له الجبال
الصخرية السود التى تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو
الصلاب : أبناء البادية وأمرء الصحراء ...

ومن ثم يمضى مؤرخونا الثقات وروايتنا الأولى، فيملأون
المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك «البيت العتيق»
كيف عظمت وجلت ، وعن « مكة » فى عهدها الجديد كيف
تسامت الى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب
وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » - وهم خثولة اسماعيل - تولوا
أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها
الأولين من «بنى اسماعيل» فتركوها دون أن ينزعوا «جرهما»
فى ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة «مكة» أن يكون بها بغى
أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم بغوا وظلموا وأكلوا مال
الكعبة الذى يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت

مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد
الا أخرجته ، ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها الا هلك
مكانه ، فيقال انها ما سميت ببكة الا لانها كانت تبك -
تكسر - أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا »

وهكذا أخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ،
يرثيهم شاعرهم فيقول :

وقائلة والدمع سكب مبادر

وقد شرقت بالدمع منها المحاجر :

كان لم يكن بين «الحجون» الى «الصفاء»

أنيس ، ولم يسمر « بمكة » سامر

فقلت لها والقلب منى كأنها

يلجلج له بين الجناحين طائر :

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا

صروف الليالي والحدود العواثر

وكنا ولاية « البيت » من بعد «نابت»

نطوف بذاك «البيت» والخير ظاهر

فأخرجنا منها المليك بقدرة

كذلك - يا للناس ! - تجرى المقادر

فسحبت دموع العين تبكى لبلدة

بها حرم أمن ، وفيها المشاعر

وروا أن « تبعا » الحميري مر بقرب «مكة» فى طريقه الى

اليمن ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر

فقالوا له :

— أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك
قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال :

— بلى !

قالوا :

— بيت بمكة يعبداه أهله ، ويصلون عنده

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبع » بذلك، لما عرفوا
من هلاك من أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقول
« السهيلي » (١) : « وروى نقلة الأخبار أن « تبعاً » لما عمد
الى البيت يريد اخراجه ، رمى بداء تمخض منه رأسه قيحا
وصديداً . . . وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه
قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعنت منه — أى
أبست — يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة . . .
فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهاهم ما رأوا منه
ولم يجد عندهم فرجا » حتى جاءه حبران من اليهود فقالا:
لعلك هممت بشئ فى أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم أردت هدمه . وذكر لهما ما قال الهذليون
فصاح الحبران :

« ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتا
للّه اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه
لتهلكن وليهلكن من معك جميعا »

(١) الروض الأنف : ١ — ص ٢٧ ط الجمالية

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ويعظمه ويكرمه ، ويخلق رأسه عنده ، ويدل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وخلق رأسه ، وأقام بمكة - فيما يذكرون - ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا

فيقال انه برىء من دأئه وصبح من وجعه ، ويعلق « السهيل » على ذلك قائلا :

« وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه يقول : (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)

ثم يروى « لتبع » شعرا يقول فيه :

وكسونا البيت الذي حرم الله

له ملاء منضدا وبرودا

ونحرن بالشعب ستة ألف

فترى الناس نحوهن ورودا

ثم سرنا عنه نؤم سهيلا

فرفعنا لواءنا معقودا

وسوف نسمع فى العام الذى وضعت فيه « أمانة »

وحيدها ، قصة صاحب الفيل الذى رده الله عن بيته مريضا مدحورا ...

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغاً يصوره لنا ما رووه عن السيدة «عائشة» انها قالت : « ما زلنا نسمع أن »اسافا وثائلة « - وهما من أصنام العرب في الجاهلية - كانا رجلاً وامرأة من جرهم ، أحداثاً في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ! »

وقد ذكر ابن اسحق في (السيرة) وابن الكلبي في (الأصنام) وياقوت في (معجمه) نسب هذين المخلوقين اللذين مسخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه - فيما نقل ابن هشام في السيرة - من « ان أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم - حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد - الا حمل معه حجارة من حجارة البيت تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ٠٠ »

وكانت خدمة الكعبة نذراً غالباً تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هي ولدت رجلاً أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت ربّ من بنيـه
ربيطـة بمكة العليـه
فباركن لي بها اليـه
واجعله من صالح البريه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهما حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت في « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصي بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر » الذي هو قريش على أرجح الروايات

وكان « قصي » يدعى زيدا حتى مات أبوه « كلاب » وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملها الى بلاده ، وبقي « زهرة » أخو « قصي » في مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال

وشب « قصي » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تساب هو ورجل من قضاة ، فعيه قائلا :
- لست منا ، وانما أنت فينا ملصق

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

- يا بني ، صدق ٠٠ انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قريش ، وأخوك زهرة ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران بيت الله الحرام وعاد الى مكة رجلا ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، واذا ذاك رأى أنه « أولى بالكعبة وبأمر مكة » من خزاعة

وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقريش سليل اسماعيل وصريح
ولده »

وشبت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفها ، وبين
خزاعة وبني بكر ، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، وحكموا
« يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة
وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت
بقصى عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرحهم ،
وجدت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ،
فكانت الى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ،
واللواء » وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقاه فى ولده من
بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ،
كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ،
وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى
أمرها !

فلما أدركه الكبر ورق عظمه ، عز عليه ألا يدرك ولده
البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان
أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا
عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا ،
حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ،
والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى

عهم « عبد الدار » مما كان جدهم قصى قد جعله اليه من الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، ففترقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتصموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار الحماية واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة

وظائف دينية ضخمة ، استحدثت بعضها قصى ، وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاء الزمن وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرها بما كان قومه يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم
حتى يقال : أجزوا آل صفوانا
مجد بناء لنا قدما أوائلنا

وأورثوه طوال الدهر آخرانا
وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معد أن قومي
كرام الناس أن لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتر ؟
وأى الناس لم نعلك لجاما ؟
السنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما ؟

وذلك أنه كانت للعرب أشهر حرم لا يحل لهم فيها قتال
أو غارة أو طلب ثار ، إلا أن ينسأها لهم أحد النساء

ثم كانت للعرب في مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ
رفع « إبراهيم » القواعد من البيت و « إسماعيل » ، وعهد
اليهما الله أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع
السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ،
وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم »
« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير
فاذكروا اسم الله عليها ٠٠ »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى إسماعيل
لحجارة الحرم التي حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم
خلف نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على
ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت
والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة
والمزدلفة ، وهدى البدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية



وطال المدى ومكة مهوى الأفئدة وقبله العرب ، لا تكاد
بقعة أخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع في انتزاع مجدها ،
حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ...

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة في خارج
الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت

الذى أقامه « القساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بناها
« أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف إليها حج العرب
وقد جلب إليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة
بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ،
وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه
بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه
الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من
الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنس » (١)

ثم كتب إلى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك ايها
الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته
حتى اصرف اليها حج العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقي البيت العتيق
بمكة كما كان - وكما سيظل الى الابد - مثابة الخائفين ،
وقبله الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى
الناس :

« وأذن فى الناس بالبحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق »



وما تزال الدنيا - حتى الساعة - تقف خاشعة حائرة
امام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من
مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرا وأرغد عيشا وأخصب
أرضا ...

(١) الروض الأتف : ٤٠/١

وما يزال كثير من المستشرقين ، في عجب من أمر تلك
العزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء في واد غير ذى زرع
ولا ظل ، يصفها زائر منهم في القرن العشرين فيقول :
« في قلب الصحراء ، في واد قفر بين سلسلتين من الجبال
الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره
على شوارعها ... »

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية
تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال
الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التي يكاد ضوءها
يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها
من حرارتها اللافتحة . فحسابها ، وصخورها الصم ، تبعث
الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى
السماء دخانه ... »

« وإذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت
معالم الحياة كأنما جمدت في تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ،
والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنك الا صفير الريح الصرصر
العاتية ... »

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل في
التخيل أو ظلال الحدايق الرطبة ، لا وجود له ، فلا تخيل
هناك ، ولا حدايق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من
شيء ينبت في بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ
الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمة
لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ،

تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون
ولا عدت عليها عوادي الزمان ، فلمكة — منذ كانت — موقعها
الاقتصادي القل ، ومكانتها الدينية الاولى



أتري حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟
أجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففي هذه البيئة
المقدسة تفتحت عيون الفتاة التى عرفها التاريخ اما خالدة
فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبي العربى
اليتيم الذى بعث فى مكة ، فأيد بمبعثه ذلك ما كان لها من
حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ،
واتخذ من الكعبة التى تعبد فيها « الخليل » قبلته التى يولى
المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وانى أقاموا ، ما عبد
الله فى الارض !

أجل هى مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد
رسالته ، ومثابة آباءه وأجداده ، وقبله الذين آمنوا به
امس واليوم وغدا والى الأبد ...

بنو زهرة

« ... لم يزل الله ينقلني من
الأصلاّب الطيبة الى الأرحام
الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب
شعبتان الا كنت في خيرهما »
من حديث شريف

فى يوم لم يحدده التاريخ ، حوالى منتصف القرن السادس
الميلادى رأت النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التى كانت
ذات الشأن الاول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت
وحدها بوظائفها الدينية الضخمة ، وما يتبعها من أيجاد
وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن

(١) فى (المعارف لابن قتيبة) أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة ،
قال « السهيلي » فى (الروض الأنف ٧٩/١) :
« وهذا منكر غير معروف ، وإنما هو جدهم كما قال ابن اسحق »
يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب ،
وزهرة بن كلاب »

وقد علق ناشر السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : وزهرة امرأة
نسب اليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول
ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا
ويلاحظ عليهم أنهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن
الطبرى نصاً صريحاً فى أن زهرة رجل ، ثم لم يعلقوا على هذا التناقض
فى الروايات .

مرة بن كعب بن لوى ، والشقيق الأكبر « لقصى » الذى ملك
مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى
شئ منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » - حفيد قصي
وزهرة - بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد
بنى الجذرة . سموا بذلك لأن جدهم « عامر بن عمرو
الأزدى » بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ،
ففزعت قريش لذلك ، وخافت أن جاء سيل آخر أن يذهب
شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ،
ولقب أولاده من بعده ببنى الجذرة

ولسعد بن سيل ، جد قصي وزهرة لأمهما ، يقول
الشاعر :

ما نرى فى الناس شخصا واحدا
من علمناه ، كسعد بن سيل
فارسا أضط فيه عسرة
وإذا ما واقف القرن نزل
فارسا يستدرج الخيل كما أسـ
تدرج الحر القطامي الحجل



عرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى
عبد مناف بن قصي دون أخوتهم من بنى عبد الدار . ولعلنا
نذكر هنا ما نقلناه فى حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر

قصى حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر
« عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ،
فقال قصى لبكره :

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك :
لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يعقد
لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا
من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من
طعامك ، ولا تقطع أمرا من أمورها إلا في دارك »

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حيناً ،
ثم اجماع بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم
والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار ،
لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، ففرقت عند ذلك
قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم
بمكانتهم في قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت
طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون أن لا ينزع منهم ما كان
« قصى » جعل اليهم

وعقد كل فريق على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا
ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف
جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند
الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم
وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ،
فسموا المطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند
الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا الأحلاف
وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف في ذاك الحلف ،

ولما عبثت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحلاف ،
عبثت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنيها (السيرة
١٣٩)

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف أخوة متجاورين
لا ينفصلون ، وبيوتهم أبدا متجاورة ، فحين جزأت قريش
الكعبة ، كان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان
ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني نخزوم ومن انضم
اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان
شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، الخ



وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء
حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل
البعثة بعشرين سنة ، وكان اكرم حلف وأشرفه . وذلك أن
رجلا من زبيد قدم « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصي
ابن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدي
حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار ، ونخزوما ،
وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على
العاصي وانتهروه ، فلما رأى « الزبيدي » أنشر ، أوفى على
جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم
حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لظلوم بضاعته
بيطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر
فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وقال :
ما لهذا مترك !

قالوا: فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيسم بن مرة في دار
عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيسم بن مرة بن كعب بن لؤى
(وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة) فصنع لهم طعاما ،
وتعاقدوا على (ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن
دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه
حتى ترد عليه مظلومه)

وانصفوا « الزبيدي » من العاصي
فيروى « ابن اسحاق » عن سمع « طلحة بن عبد الله
الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد
شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به
حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأُجبت »



من هذه الاسرة القرشية الكريمة التى عرفت من قديم
بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ
مشاركتها فى الأجداد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق
بالأحداث الجليلة التى شهدتها « مكة » قبيل الاسلام ،

وتحالفها مع « هاشم » وبنيه في الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول ... من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التي توجت ذلك المجد العريق بالشرف الذي لا يدرك ولا ينال ...

أبوها « وهب » سيد بني زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذي يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » إحدى اللواتي اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقية وأصالة ، فهي ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي »

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي »

والدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبثها الجليل في أمومتها التاريخية

ووراثات مجيدة ، أهدتها إلى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن

(١) الروض الاتنف : ١٠٤/١

قصي بن كلاب « وجعلته - صلى الله عليه وسلم - يعتز
بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :
« ... لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام
الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تشعب شعبتان الا كنت في
خيرهما »

وعن « أنس » انه قال :

« قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد جاءكم
رسول من أنفسكم) - بفتح الفاء - وقال : انا أنفسكم
نسبا وصهرا وحسبا »

نسب تحسب العلا بحلاه قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء



الكتاب الثالث :

زهرة قریش

١ - فتاة زهرة

٢ - فتى هاشم

٣ - العرس

٤ - البشرى

فتاة زهرة

« ... وكانت يومئذ أفضل
فتاة في قريش نسبا وموضعا »
ابن اسحاق

تفتح صباحها في أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من
اصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به في ذاك المجتمع
الارستقراطي المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ...
كانت زهرة قريش الياقة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا
وشرفا ، وقد ظلت في خدرها محجبة عن العيون مصونة عن
الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يجروون
على رسم صورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها
الا انها « كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسبا
وموضعا » (١)

على ان شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ،
فينتشر في أرجاء مكة ويشير اكرم الآمال في نفوس شبانها
الذين زهدوا في كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والالسن ،
« وعرف لبعضهن اثر فعال في المضاربات والمقامرات التي
كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت أخريات

(١) السيرة ١/١٦٥

— كما يقول بودلى — بمعاونة التجار والمقامرين في تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق »



وقد عرفت « آمنة » في طفولتها وحداثتها ، ابن العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من أترابها في الأسر القرشية ، اذ كان البيت الهاشمي أقرب هذه الأسر جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهم أواصر ود قديم لم تنفصم عراه — على ما رأينا — منذ عهد الشقيقين « قصي وزهرة ولدى كلاب بن مرة »

اجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها ويحتويها خدرها ، وتلاقت واياه في الطفولة البريئة على روابى مكة وبين ربوعها ، وفي ساحة الحرم الامين ، كما جمعتهم مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ، ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم « قريشا » أمر ...



ثم حجبت « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، في الوقت الذي كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب ورنّت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويرفون اليها ما لهم من مآثر وأمجاد

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب ببنيه
العشرة على هبل في جوف الكعبة ،
فقال لصاحب القداح :

— اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم
« وكان عبد الله أحب ولد عبد
المطلب اليه ، فكان يرى أن السهم
إذا أخطاه فقد أشوى . . »

ابن اسحاق

لم يكن «عبد الله» بين الذين تقدموا لخطبة «زهرة قريش»
مع انه الجدير بأن يحظى بيسدها دونهم جميعا ، فما كان
فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة

فهو ابن « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذى
شرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه
وعظم خطره فيهم »

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم
البيت القرشى ، وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ،
وأبا طالب » فكان من نسلها الامام على ، وجعفر الطيار

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، أبا محمد الرسول
 و جدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية »
 التى كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا
 لها أن امرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقتة »



ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم
 يتقدم لحطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر
 نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنييه لله عند الكعبة
 وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذى
 يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن «عبد المطلب» حين انتهت اليه اماره «مكة» وولى
 السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما
 يلقيه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء

وذكر بئر « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من
 الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة . .
 وذكر ما وعته أذناه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته
 الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم »
 ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فود لو
 وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له
 شأن أى شأى !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة
 نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق امله
 الغالى !

روى « ابن اسحق » عن سمع على بن أبى طالب ،
يحدث حديث جده وزمزم فيقول :

قال عبد المطلب : « انى لنأثم فى الحجر اذ اثنائى آت فقال :
» ... احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث
من أبىك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تدم ، تسقى الحجيج
الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم »

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له
يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف
ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك
تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

— زد عنى حتى احفر ، فوالله لامضين لما امرت به

وقاومت قريش ، وعيرته بقله الولد ، على حين اصر هو
على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت
تحتها البئر ، رفع صوته مكبرا ، فعرفت قريش انه قد أدرك
حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

— يا عبد المطلب ، انها بشر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا
فيها حقا ، فاشركنا معك فيها ..

قال :

— ما انا بفاعل ، ان هذا الامر قد خصصت به دونكم ،
واعطيته من بينكم

فقالوا :

— فانصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ...

قال : لا ، ولكن هلموا الى امر نصف بينى وبينكم ، بضرب

عليها بالقداح : اجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم
كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف
قدحاه فلا شيء له

قالوا : « انصفت »

وضربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا
عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !
ومن ثم اقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، ليناذعه
في مائها أحد من قومه قريش
تلك هي قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب
السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا
تمهيدا لحديث « النذر » الذي يتصل « بعبد الله » أقوى
اتصال

ذلك أن أباه عبد المطلب - حين اشتغل بحفر البئر - لم
يكن له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقي
من قريش ما لقي ، وسمع تعييرها إياه بقله الولد ، نذر
يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ،
لينحرن أحدهم عند الكعبة

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » أصغرهم جميعا ،
فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ،
دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ...



أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الاولى

قبل مبعث النبي بنحو احدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها
 إلا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ،
 وقد حمل كل منهم ، قدحا عليه اسمه ، واستسلموا
 للمصير المحتوم راضين

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفًا وحنانًا فى انتظار
 اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب فيمن ذهب الى
 الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الدبيح المختار ، على حين
 بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار أبيها ،
 وإن أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى
 العم يختاره رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين
 ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما
 كان هناك فى الحرم



ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فعلاً أرجاء مكة ،
 متنقلا بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « ابنسة
 وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا
 ووجمت « آمنة » للنبا كما وجمت له كل قرشية يعز
 عليها أن ينحر زين شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب »
 على أبيه وعلى قريش جميعا !

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل
 شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، وأخير

صاحب القداح هناك بندره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وإرادة وإيمان ، ليقول لصاحب القداح : « اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم ينقل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى » !

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف » ونائلة « ليذبحه !

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حى بنى زهرة ، ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !

واقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت اندية قریش جميعا ودورها ... ترى هل ذهبوا ليحضروا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة ؟

هكذا ظننت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن انى لها ذاك وهى المحجبة المصون ؟ !

وهيها استطاعت ان تفعل ، افقادرة هي على ان تصنع
شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان
الصلاة والدعاء ...



وولى النهار ...
واقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال
قريش لم يؤوبوا بعد الى دورهم
ما الذى أمسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن
« آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبرها أن الرجال قد
ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !
وانبثق شعاع نجيل من الأمل وسط الظلمات المتراكبة ،
حين مضى الراوى فى حديثه يقول :
« لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من
انديتها فقالوا :

— ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفى بندرى »

فقال له قريش وبنوه :

— والله لا تدبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا
لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يدبحه ، فما بقاء الناس على
هذا ؟

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى — وهو من آل
فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والوزير وأبى
طالب — فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

— والله لا تدبجه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه
بأموالنا فديناه ...

وأضاف شيوخ قريش :

— فلتنطلق بولدك الى عرافة بخيبر ، لها تابع ، فلتسألها :
ان أمرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك فيه بأمر لك وله فيه
فرج ، قبلته ...

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق
« خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلقوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيوناً مسهدة ،
وجنوبا قد نبت بها المضاجع ، والسنة ضارعة فى جوف
الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ،
فتى هاشم

واعقبت رحيلهم أيام قاربت العشرين عدا ، وانيات الخطو
بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب
وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة
خلاء

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار
وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من
الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ...

وارهفت الأذان لعلها تسمع نأ عن مصير الفتى العزيز
وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الايام العشرين ، فقد
غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قريش
ونجومها الزهر

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ،
يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أبناء
الركب الغائب

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يتسلان من
أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة الحالكة ، فاذا بلغن
الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على اثر
ذلك الى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن
يستجيب لضرعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى
هذا المكان ، وان ينقذ « عبد الله » كما انقذ جده
« اسماعيل » !

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الأفق الشالى سحب
من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغد السير الى « مكة » ،
فعرج الغلمان على قمم الروابى ورعوس الجبال ، يستكشفون
أمر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا
نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين
يدعون ، على حين مضت رسلهم الى أحياء قريش تجمع
الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات
البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر
الكاهنة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها
« عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به
وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

— ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ...

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم
غدوا عليها فقالت لهم :

— قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

اجابوا : عشر من الابل

قالت :

— فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من
الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على
صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ،
وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا
صاحبكم »

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب »
ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة
من وجوه « هاشم وقريش » ، يتقدمهم « عبد المطلب » والى
يمينه ... « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة »
اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى ابيها لتسأله كيف كانت
النجاة ، لولا ان فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا
بالوافدين الكرام

العرس

((ثم انصرف عبد المطلب آخذا
بيد عبد الله - اثر افتدائه من
الذبح - فخرج حتى أتى به وهب
ابن عبد مناف بن زهرة .. وهو
يومئذ سيد بنى زهرة نسباً
وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة ..))
ابن اسحاق

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت
عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة
الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :
« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا
من الإبل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله
« فزادوا عشرا من الإبل وقام عبد المطلب يدعو ربه ، ثم
ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله
« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم
ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ... »

« تم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله ... »

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :
- قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه في ارتياب ثم قل :

- لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« ف ضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب » يدعو الله ، فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية ،
فالثالثة ، والقدح يخرج عليها !

« واذا ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوى الذي جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » في لهفة ، لكن الفتاة افلحت في ان تخفى رغبتها في معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر اجل وأخطر ...

واذا هما في مجلسهما ذاك ، ترنو احدهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته في رقة وحنو :

« أن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبها زوجة لفتاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » في شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها :
أحقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها . فاحتضنتها في حنو غامر ، خدر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف شاء !



وطاب لها أن تبقى هكذا في حضن أمها : صامتة هادئة ، لولا أن سيدات الأسرة توافدن واحدة في اثراخرى ، مهنئات بمباركات

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قريش « لعبد الله » ووقوفهن في طريقه بين الحرم ودار « وهب » ، يعرضن أنفسهن عليه عرضا صريحا بادی اللهفة

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !
سمعت أن « رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي » القرشية الأصلية ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

— أين تذهب يا عبد الله ؟
فأجاب في إيجاز :

— مع أبى
قالت « رقية » :
— لك مثل الابل التى نحررت عنك اليوم ، ان قبلت ان
اهب لك نفسى الساعة !
فرد عليها معذرا فى تلطف :
— انا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..
وقيل ان « فاطمة بنت مر » — وكانت من أجمل النساء
وأعفهن ، أو كانت كما ذكر ابن الاثير ، كاهنة من خثعم —
دعته الى نكاحها فأبى ...
وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه
يومئذ ، فلم يستجب لها ...



بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش »
حين توافدون عليها للتهنئة
وقائلة تقول :
— اعدرن هؤلاء المتعرضات لعبد الله ، فما رأين مثله
وسامة وسحرا
فتعقب أخرى :
— يا للفداء العالى ! هل سمعتن بأحد افتدى قبله بمائة
من الابل ؟
وتضيف ثالثة :
— هنيئا لك يا « أمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب
سيدات مكة من أجله » !

ترى هل حدث ذلك كله حقا ؟

اكثر المؤرخين الاقدمين يروونه في غير شك ولا ارتياب ،
اما المحدثون فترى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل »
يقرر أن الوقوف لتقصي أمثال هذه الروايات عن تعرض
النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما أستطاع الدكتور
هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما
قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة في الزواج منه ، فلما
بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين نسمع « بودلى » يقول في كتابه (الرسول) :
« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل
الشباب وأكثرهم سحرا وذووع صيت في مكة ، ويقال انه
لما خطب آمنة بنت وهب « تحطمت قلوب كثيرات من
سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحثا ،
لوجدنا في الوقوف لتقصي هذه الروايات غناء كثيرا ، أما
ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا فنيا قصصيا ، فلأمعدى
لنا عن الالتفات الى كل هذا والاهتمام بالصغيرة والكبيرة
فيه ، كيما ننتفع بها في التلوين الفني لصورة التي ولدت
بطلنا الأعظم

ونكاد لا نشك في أن « آمنة » سمعت وهي على وشك
الزفاف ، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتاها
المومق ، وأنها تلقت التهنة الحارة بزواجها من الشاب
الهاشمي الذي ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين
بسحر جماله ونضارة حيويته

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، غابت
« آمنة » عن المجلس وهى فيه حاضرة : كانت تفكر فى فتاها
الذى لم يكذب يفتدى من الذبح حتى هرع اليها خاطبا ،
زاهدا فى كل انثى سواها ، غير ملق اذنيه الى ما سمع من
دواعى الاغراء !

واستمرت طعم تأملاتها فى زحمة المهنئات ، ولذ لها أن
تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد
الله » وهو يدارى عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها او يعرف
مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت
دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه ،
فهو يسعى اليها لم يكذب يطبق الصبر عنها لحظة بعد الفداء
كم فكر فيها « عبد الله » ؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟
وكيف يكون لقاءهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟ !
أسئلة عرضت لآمنة وهى فى حلمها المستغرق ، حتى
افاقت منه على ضجة الدار تنهيا لمرس عاجل قريب



كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب
الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ،
راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد
شعرة ، أنقذه الله بأعلى فدية عرفها العرب !
وأضيئت المشاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ،

وحفلت دار الندوة بوجوه قریش وساداتها ، وسهرت
مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين
مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمة الجبل لكى يذبحه طاعة
وتعبدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب
قوسين أو أدنى

انها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد
طبقة ، وجيلا بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه
فى البيت العتيق الذى رفع ابراهيم قواعده واسماعيل
والبطل اليوم هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل »
التي انتشرت فى الارض وتوارثت مجد الجدود

وربما خطر لبعض السمار فى ليلة العرس تلك ، أن
يصلوا ما بين الديهين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما أبعد
واحد أو أكثر ، فحاول أن يتلمس وراء ستار القد المحجب ،
ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان
لاسماعيل بعد الفداء



واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان «عبد الله»
اثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم ،
حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئها
لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاك
اليوم تملأ عينها من الدار التى استقبلتها وليدة ورعتها
صبية وفتاة ، وانضجتها عروسا
ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير .

وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت في رفقة من آلهة متجهة الى دنيها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة واخرى الى الربوع التى خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

واستغرقتها مشاعرها ، فأمسكت طوال الطريق من الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألفت في عينيها دمعتان صافيتان كحبتى لؤلؤ ...

وأدرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقتة وشيكا ، بل قادها في رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعدت هنالك مجالس للضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

وراح يريها بيتها الجديد

ولم يكن البيت كبيرا ضخما البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عد رجبا مريحا لعروسين يبدأان حياتهما المشتركة

كان (١) - كما وصفه « محمد ليبب البتانونى » فى كتابه

(١) قيل ان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهب هذه الدار لابن عمه « عقيل بن أبى طالب » الذى صرع بالكوفة قبيل مذبحة كربلاء ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ، فلما بنى داره المشهورة بدار ابن يوسف ، أدخل دار عبد الله فيها وكانت الى جوارها ، حتى اشترتها « الحيزران » وفصلتها وأعادت بنائها كما كانت ، وجعلتها مسجدا

(الرحلة الحجازية) - ذا درج حجري يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر مترا في عرض ستة أمتار ، وفي جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة في وسطها - بميل الى الحائط الغربي - مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس

وترك « عبد الله » عروسه في مخدعها مع رفيقاتها من سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رجة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التي انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نسباً



البشرى

وسمعت هاتفًا يهتف بها في
رؤياها :
« أنك قد حملت بسيد هذه
الأمة »

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت
الدنيا ، و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث
شائق عما رأى في رحلته الى كاهنة الحجاز
سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من
شجن لفراق آلهة :
— هلا حدثتنى يا عبدالله عن أولئك النسوة اللاتي شغلنك
فى أيامك هذه ؟

فانبسط أسارىره لاقبالها عليه وقال يجيبها :
« ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعت من
تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن اليك وحدك !
« على أن للقصة بقية لما تسمعى بها ، لأنها حدثت فى
يومنا هذا اذ كنت عائداً من بيت ابيك لى أهلى دارى
لاستقبال ملكتها الغالية ، وشغلت بهذا يومى كله ، فلم
أؤكد أحدث أحداً بما كان ! »

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :
— أخاطبات جديدات يطلبين القرب من فتى مكة الأوحـد ؟
فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة وأجاب :
— كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن
لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن
رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !
وأمسك فترة يرنو الى صاحبتـه ، كأنه يريد أن يلمس
وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومات اليه ليمضى
فى قصته
فاستجاب لايـمائها واستطرد يقول :
— أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه أبـدل خلقا
جديدا : مررت بهن اليوم فى طريقى بين دار أبـيك ودارنا
هذه ، فأشحن عنى بوجوههن معرضات ، الى حد أن دفعنى
الشوق لمعرفة سر هذا الانقلاب ، الى أن أسأل احداهن
« رقية بنت نوفل » :
« مالك لا تعرضين على اليوم » ما كنت عرضت على
بالأمس ؟ »
فكان جوابها العجيب أن قالت :
« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك
اليوم حاجة ! »
وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة : « يا فتى ،
ما أنا بصاحبة ربية ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن
يكون لى ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت
بعدى ؟ »

قلت : « زوجنى أبى آمنة بنت وهب »

فأنشدت :

الله ما « زهرية » سلبت

منك الذى استلبت وما تدرى !

ولما سألت الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟
أجابت :

« مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت
على ، ودخلت على آمنة فذهبت بها »



وصمت « عبد الله » وسكنت العروس ، وقد راحا
يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قریش
من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن
طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « رقية »
بنت نوفل

فتسائل « عبد الله » وقد رآه ما يبدو عليها من اهتمام :
— ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟
أجابت « آمنة » فى جد :

— ستعرف بعد ، فهلا أعدت لى ما قالت « رقية » ؟
فلم يسع « عبد الله » إلا أن يقول :

— سألتها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت
على بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك
اليوم حاجة

فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

— والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فرقية
أخت « ورقة بن نوفل » وهو — كما تعلم وأعلم — قد
تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبي !
فحذق « عبد الله » فى زوجته مليا ثم هتف :

— ترين يا آمنة أننا ...

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى حلم
شائق مثير ، استعادت فيه كل الذى كانت الجزيرة تمتلىء
به من شائعات وارهافات عن النبي المنتظر !



ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الالام بها ،
و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نور الفجر
الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ،
وهى نائمة

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من
نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كان شعاعا من النور ينبثق من كيائها اللطيف فيضيء
الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض

الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد
هذه الأمة ... »



وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ
عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة
أيام ، اذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى
الشام

وأغلب الظن ان كلام « رقية بنت نوفل » عن الثور الذى
فارق عبد الله الى آمنة ، قد شغل أويقات السمر فى تلك
الأمسيات المحدودات التى قضاهما العروسان معا قبل ان
يفترقا ، وان الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عليا ، خابلتهما
فيها أمنية عزيزة غالية ، قل من شارفها أو طمح اليها



الكتاب الرابع

العروس الأرملة

١ - فراق

٢ - رسول الى يشرب

٣ - غائب لا يثوب !

فراق

ثم حانت ساعة الفراق !

وودع « عبد الله » زوجته الحبيبة حين أذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبهت « آمنة » بفتاها وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيائها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة في حنو ، وهو يظن أن الذي بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف في فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمدارة :

— ان هي الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة

فهمست في صوت أبج مختنق :

— وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟

أجاب متضحكا :

— تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين قلبى الذى أدمه هنا وأسافر بجسم ينزع أبدا الى أعز موضع ، ويحن الى أحب وأجمل من خلق الله !
فتراخت يداها وأنت فى ضعف :

— ويلي يا عبد الله من ليالى الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :
— لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك احلام
عذاب . افسست حديث « رقية بنت نوفل » ورؤيا الامس
القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته
وتقلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ،
واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها
خشية أن يتصدع ...
وادركتها بعد ساعة جاريتهما « بركة أم أيمن » فقاداتها
برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة
عليها مما تلاقى ...



ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لا تبرحه ،
تسامر أشجانها وترسل قلبها فى اثر الحبيب الراحل . وقد
حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن
وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأناس
بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها
هذه العزلة ، لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من
شجن ولذة



ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت

بالبادرة الأولى للحمل ، فودت لو طارت بالبشرى الى
« عبد الله » ثم استعادت شيئاً من اشراقها ، وقد هون عليها
مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم
يدينها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقيناً من الحادث السعيد
الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !



واهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة
أن تعود ، فتهيات « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعد
مابقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا
يحدثها عما لقى فى بعدها من حر الشوق ولوعة الحنين .
ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشرها ؟
أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام
اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهى العذب ؟
بهذا شغلت « آمنة » فى الفترة التى سبقت عودة
الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها فى عنف ،
ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن
يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب
وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف
طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت
قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر
سيدتها على عجل بأنها رأت « عبد الله » رأى العين ،
وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !
وتناهى الى اذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة

لدارها ، فإين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يخف إليها
طائرا ؟

لعله لقى - فى طوافه بالكعبة اثر عودته - من احتجزه
حيناً

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع
عبد الله الا أن يمشى على مهل ، احتراماً لشيخوخة أبيه
أو لعل ...



رسول الى يثرب

وأخيرا ، أحست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت
عينها بالبَاب وهي لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا
فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدمها ،
فتسمرت حيث هي : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وإنما جاء « عبد المطلب »
الشيخ في صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهل الأدين ،
وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق
وكانت « أم أيمن » تمشى في أثرهم متخاذلة مطرقة ،
تحاول أن تخفي دمعة أفلتت من مقلتيها

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

— بعض الشجاعة يا آمنة ، فما في الأمر ما يدعو الى مثل
ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا في انتظارها
بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه ان وعكة
طارئة آلت به وهو في طريقه إلينا ، وعمّا قريب يبرأ ويعود
سألا اليك وإلى مكة وقريش

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :
— هو ذاك يا آمنة . . . وعكة بسيطة ولا شيء أكثر .
وقد قال الرفاق : « خلفناه يثرب عند أخواله من بنى

مخزوم « فبعثت إليه اخاه الحارث ، كى يكون معه ، ويصحبه
فى طريقه إلينا ، فثوبى الى صبرك ، وادعى له . . . »
قالت فى ضعف :
— افعل يا عم !

وانصرفت من فورها الى الصلاة والدعاء ، فلم تكد تشعر
بالقوم حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين



واتم الشهر الثانى دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد
ما استطاعت ان تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك
لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتدى
بالأمس أغلى فداء . . .

وكانت تعاودها — فى لحظات نومها القصيرة — رؤيا
ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف
يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا
تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضى اليه بالذى ترى وتسمع

فائب لا يثوب

ثم ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه
العروس ، والقرشيين جميعا ...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى مخزوم ، اثر رحيل
القافلة التى تخلف عنها

ودفن هناك - على أرجح الأقوال - ولم يقبل فيه هذه
المرّة أى فداء !



ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها
بيكاء

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لاتكاد
تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت
عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغمام

دمتسه المتسايا دعوة فأجابها
وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحمّلون سريره
تعاوره أصحابه في التزاحم
فان تك غالتسه المنون وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحم
ثم أمسكت لا تزيد



ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالت
المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضحلت من التواح
عليه حلوّق بحث من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ
شهرين وأيام ...
كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما ، فيا للشباب الفتى
النضير ، يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !
ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال في
يديها خضاب العرس !

الكتاب الخامس

أم اليتيم

١ - الجنين

٢ - الوليد

٣ - الرضيع

الجنين

أشرق النور في العوالم لما
بشرتها بأحمد الانبياء
« شوقى »

وفض المآثم ..
لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيدا
بيثرب
كانوا فى حيرة من أمره :
ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان
الفداء ؟

من كان يظن ، حين نحرث الابل المائة بالحرم ، وتركت
لا يصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد
للذبيح المفتدى ، على قيد خطوات معدودات ؟
بهذا شغل القوم

وفى مثله كانت « آمنة » تفكر وهى فى وحدتها تجتر
أحزانها ، وتكابد الذى تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف
عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى
أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ،
 وجدت فيه جودا وغدرا بالحبيب الذى رحل
 وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، أن
 تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة »
 شهرا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى
 الأحزان بالازملة العروس ...



حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العواد
 بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل
 وافد ووافدة من أهلها :

— فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت
 العاجل ؟

— فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفر له لحده
 بيثرب ؟

ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها فى
 حنان وقلق وارتياح ، على أنها ما لبثت أن صحت من غفوتها
 وقالت لمن حولها :

« كأنى عرفت سر الذى كان : ان عبد الله لم يفتد من
 الذبح الا لمحة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا
 الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى أحشائي ، والذى
 من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على « آمنة »

فطوت أحزانها في أعماقها ، وبدأت تفكر في ابنها الذي يحيا بها ويحييها ...

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنة » قبل أن أقف لحظة لاشير الى اختلاف الروايات في وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين في رحم أمه ؟
أو كانت بعد أن وضعت ؟

الأعرف بين جمهور المسلمين ، أن الرسول ولد يتيما ، وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف فيه . قال :

« ... ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به »

ونقل « ابن هشام » عبارته هذه ، من غير أن يضيف اليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا في هذا

ونقل « ابن الاثير » في (الكامل) أن « الزهرى » قال :

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيل بل كان في الشام فأقبل في غير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل في موضع آخر (١٣/٢) أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخي ، مات أبوه وأمّه حبل به »

لكن « السهيلي » نقل في (الروض الأنف) : أن « أكثر العلماء على أن عبد الله مات والرسول في المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك ٠٠ وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا »

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلي » التي ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها

وأشار « البرزنجي » في (مولده) الى الخلاف اشارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الاقوال المروية ، توفي بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله في مرضه عائدا من الشام » - ص ١٢

وعلق « عlish » على هذا في شرحه للمولد ، فذكر من الاقوال المروية التي أشار اليها البرزنجي : أن أبا الرسول توفي وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا ٠٠٠



وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفي وابنه جنين ٠ قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه في يثرب وهو في رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذي رأى النور

فى أغسطس سنة ٥٧٠ م بعد وفاته بشهور « - ص ٢٨
و « فيليب حتى » فى (تاريخ العرب : ١٣٥ من الطبعة
الثانية للترجمة العربية) يذكر موت عبد الله قبل مولد
ابنه ، ثم لا يشير الى خلاف فى ذلك

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر
عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا « آمنة » حاملا ،
وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت
الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام

غير انا نجد عن بعض المفكرين المحدثين - أذكر منهم
أستاذنا أمين الخولى - ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد
قبل أن يموت أبوه، وهم لا يستندون فى ذلك الى دليل نقلى ،
بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من
صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانها كله :
جسما وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » - صلى الله عليه
وسلم - تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض
معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا
وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل
المظفر ، وهذا - عندهم - يرجح ، ان لم يثبت ، أن أمه
لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل
آمنة مطمئنة هادئة ، لا يثودها حزن ولا يمضها ثكل ولا
يرهقها شجن

ولا نمارى فيما لهذا رأى من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه
الدليل النقلى الذى نعهده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا
أكثر الرواة الاول ، لا يشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله

عليه وسلم ولد يتيما ، وهذا هو الذى حملنا على أن نلوذ
بالفن لكى نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتمالاه
من توفير الراحة النفسية للآم الحامل ، رغم حزنها الثقيل
وئكلها المفجع ، فاطمأننا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا
هاما فى عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ،
قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله
كان يكفى لأن يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ،
ويملا دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبد الله
اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ٠٠٠

تسامعت ببيت « مكة » بالنبا السعيد ، فتوافدت عقائل
« قريش » على دار الفقيـد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى
ما سمعت من بشرى

وكثر الحديث عما ملا الجزيرة من أقوال عن نبي منتظر
تقارب زمانه ، يتحدث بها الاخبار من يهود ، والرهبان
من النصارى ، والكهان من العرب

ولعل العرب لم يلقوا بالا - أول الامر - الى هذا الذى
ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن الى أن « آمنة » قد ألقت
كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو
الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء
الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى رنان ، مما ذكرته أخت
ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر - وقد كانت فيما روى ابن
الاثير كاهنة من خثعم - عن النور الذى انتقل من « عبدالله »
اثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع

لغيرها من النساء في « عبد الله » مأربا . . .
ثم هي قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة
الحاكمة في مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون
الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة في بطونهن مجدا لم يسبق
اليه أحد



وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عن لا يهتمون من
الرواة ، ما تراهي « لآمنة » في أحلامها من بشرى بابن
عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكمل » قد مر بهذا عابرا دون
أن يشير اليه فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع
كل أنثى » - ص ٦٩

وأكثر المستشرقين، يأبون روايات البشرى اباة صريحا،
حتى « بودلى » - وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول -
رفض أن يقبل الذي قيل في رؤى « آمنة » عندما حملت
بمن صار نبيا . قال في كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبي ، اذا استثنينا عدة
خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه
المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا
بشرتها بقدمه . . . وانما حملته أمه ووضعت كما تحمل
كل أنثى وتضع » (ص ٢٥ من الترجمة العربية)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل
« بودلى » أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأي . لقد قرر أن

محمدا « حملته أمه ووضعتنه كما تحمل كل أنثى وتضع »
فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع في
مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات
لا يقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها - ككل أنثى مثلها - أن تحلم للجنين
الذى يتقلب في أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا
عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وانما
الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما
من أنثى تحمل ، الا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به
بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزا
وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن
عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها
سواه ، فأى عجب فى أن تبعد بآمنة أحلامها فتسمع من
يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على
من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم
يسد الا قومه ؟

اننا لا نقول لبودلى وأمثاله : ان النساء قبل « آمنة »
وبعدها ، قد عرفن ويعرفن فى حالة الحمل ، الهواتف
والاحلام ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من
أن « ليلي بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها
« عمرو بن كلثوم » :

يا لك ليلى من ولد
يقدم اقدام الاسد
من جشم فيه العدد
أقول قولاً ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال:

انى زعيم لك «أم عمرو»
بماجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشرة سنة

وكذلك روي أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين
حملت بابنها « حاتم الطائي » فسألها :
— أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة
كالناس ؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيثة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتف هتف
بها فى منامها ذات ليلة :

— أعشرة هدره (جمع هادر وهو الساقط) أحب اليك
أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

— ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت خالدا ، ومالكا ، وربيعه ، وعدت بهم
احدى منجبات العرب

بل لا نقول لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان
الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هذه
الأرض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والأحلام
وانما حسبنا أن نقول لبودلى :

— انك قد اتخذت من كتاب السيرة والمؤرخين
الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتابك عن « محمد » ،
وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم
فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم
لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد
أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها
وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه
يشابه تمرهم • انهم ليشاركونه فى كل ما فعله ، فهو
بالنسبة لهم حى كفرده منهم

» لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة
عشر قرنا بالنسبة لى ، أيسر من وصف جامعى من
اكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتابة
مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال
» عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا
ذكرياتهم عنه لذرياتهم . . .

» انى أعرف العرب عن كتب ، وانى أحبهم ، وقد عشت
فى خيامهم وأحببتها • وأظن انى أستطيع أن أفكر كما
يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق
مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت

« آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملائى
بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق انى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ
الامر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة
الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به
قرناه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام ،
على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله امكانياتها ،
ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، تزوجها « عبد الله
ابن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده
الاعلى اسماعيل ، تزوجها « وهى يومئذ - كما يقول ابن
اسحق ، شيخ كتاب السيرة - أفضل امرأة فى قريش
نسبا وموضعا »

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها
ثم صمدهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك - فى أدنى
حالاته - وهما أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين
تحمل جنينها الأول : حفيد المنافقين وسليل البيت الهاشمى
وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر
أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليه أملها ؟



والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد
أن غاب عنها « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن
مستبد ، لم تخفف حدته الا حركة الجنين البكر فى أحشائها
• - ١٣١ - • - آمنة بنت وهب

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليها أن تنتهي للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا في شعف الجبال والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذي جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم « أبرهة » هذا في جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الامين وسألت « آمنة » عبد المطلب :

— علمت يا عم أن قريشا وكنانة وهذيل ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جد فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟
أجاب :

— عرفوا ألا طاقة لهم به فكرهوا معركة غير متكافئة ، تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تنوب بعار الهزيمة وسكنت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء قيل انه كان بين أمير مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء
فأجابها الأمير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى اليه • ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حنيفة الحميرى » وقال له :

— سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : (انى لم أت لحربكم ، انما جئت لهدم

هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى
بدمائكم) فان هو لم يرد حربى فائتنى به

وجاءنى حنطة فأبلغنى رسالة أبرهة وتلقى جوابى :
« والله ما نريد حربيه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت
الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه
فهو بيته وخزمه ، وان يخل بينه وبين أبرهة ، فوالله
ما عندنا دفع عنه »
قال حنطة :

– فانطلق معى فانه قد امرنى أن آتية بك
ففعلت ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى بى اليه أحد
رجالہ فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ،
وهو صاحب غير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ،
والوحوش فى رعوس الجبال »

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى
الوقت نفسه أن تراه الحبشة معى على سرير ملكه ، فنزل
عن سريرہ وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال
لترجمانه :

– قل له ما حاجتك ؟
فلما أجبت : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير
أصابها لى

بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، وخيب ظنه فى
وقال لترجمانه فى جفوة :

– قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت
فيك حين كلمتنى • أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ،
وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟
قلت على الفور :

– انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه
قال الفاجر مدلا بقوته :

– ما كان ليمنع منى !

فأجبتة متحديا :

– أنت وذاك ••

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على «أبرهة» ثلث أموال
« تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبرا ،
واكتفى بأن أمر برد ابل الى ••

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج
من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى
نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على «أبرهة»
وجنده



وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء
وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب
الكعبة :

لاهم ان العبد يمشع رحله فامنع حلالك
جروا جموع بلادهم ، والفيل ، كى يسبوا عيالك

ان كنت تاركهم وكعبتنا ، فأمر ما بدا لك !

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
امنعهموا أن يخبروا فناكا

فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سواكا
ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها في غد من
يصحبها في خروجها لتلحق بالجمع الراحل
وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالى الذى تطوى
عليها جانبيها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ،
وفى غير دار أبيه « عبد الله »
وكان هذا الحاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ،
لكنها أوت الى فراشها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله
مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام
سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها على
ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره



وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ،
ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : كيف لم يبعث عبد
المطلب رسله اليها ؟ وفيه هذا الصمت المريب الذى يخيم

على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟
 بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى
 الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو
 ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟
 ألا ان وراء ذلك كله لأمرًا ...



وأقامت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس
 بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها
 أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة
 ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ،
 وهيا فيله وعبى جيشه مجعما لهدم البيت العتيق ، ثم
 الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل من معسكره فى
 ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك .
 فضربوه فى رأسه باللة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم
 فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم ، فوجهوه راجعا الى
 اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ،
 ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه
 نحو مكة برك !

ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ،
 فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل ،
 فجعلتهم كعصف مأكول

هنالك أدركهم الذعر ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق
الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الحثعمي »
– وكان قد خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما
هزمه أبرهة افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض
العرب – فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم اليه أن
يدلهم على الطريق الى اليمين ، حتى يرد بأعلى صوته :
أين المفر والاله الطالب
والأشرم المغلوب ليس الغالب

أو يقول :

وكل القوم يسأل عن « نفيل »
كأن عثى للحبشان دينا !
قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل
مهلك عثى كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط
أنامله أنملة أنملة ! »
ولم تكن أرض العرب قد شهدت – فيما روى ابن اسحق
عن يعقوب بن عتبة – الحصبة والجدرى قبل ذاك العام
المشهود
وأقبلت « قریش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة
شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين
وأناشيد الشعراء :

تنكلوا عن بطن مكة انها
كانت قديما لا يرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ولسوف ينبي الجاهلين عليها

ستون ألفا لم يثوبوا أرضهم
ولم يعيش بعد الاياب سقيمها



وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلي وقد أشرق
وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن
استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها - ابن عبد الله - أن
يولد بعيدا عن البلد الحرام



الوليد !

وليدَ الهندي فالكائناتُ ضياءُ
وفيمَ الزمانِ تبسمُ وتَسَاءُ
الروحُ والملائكُ حولَه
للدينِ والدنيا به بُشراءُ
والعرشُ يزهُو والحظيرةُ تزدهي
والمنتهى ، والسدرَةُ العَصماءُ
« شوقي »

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى
ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما
وهو الاكثر والأشهر ، على ما نقل «السهيلي» في (الروض
الأنف)

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى
آخرون بأن ذكروا انه كان في عام الفيل (السيرة ١/١٦٧)
وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » في صدر ليلة مقمرة
من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد انها
توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين
تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه
« محمدا »

وجاءها المخاض فى أوان السحر ، وهى وحيدة فى منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها - وقيل فى رواية أخرى ان « أم عثمان بن أبى العاص » كانت كذلك معها - فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! وخيل إليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل !

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !



وتوارت الاطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ، وهى لا تفتأ ترتو الى طلعتة البهية وكيانه الانطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ...

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى فى حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ، وقد

ألقى سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين
الوضع

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه
فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو
الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالى
وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف
بالكعبة منشدًا :

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنان
من حاسد مضطرب العنان



ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم
وسباع الطير ووحش الفلاة

وكانت مكة - حين ذاعت فيها بشرى المولد - ما تزال
تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى
القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم
اختير أبوه للنحر ، ثم افتدى بالابل المثة

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن
« ثوية الأسلمية : جارية أبى لهب بن عبد المطلب » لم

تكّد توافي سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته الحرب الدامية التي قدر لقريش أن تصلها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمي اليتيم ، برسالة السماء

فيقال ان « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : في النار ، الا أن العذاب خفف عني كل ليلة اثنين ، بماء أمصه من بين اصبعي هاتين ، وذلك أني أعتقت « ثويبة » حين بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم

و « أبو لهب » هذا ، هو الذي نزل فيه قوله تعالى : « تبئت تبئت يدا أبي لهب وتب » ، ما أغنى عنه ماله وما كسب - سيصلي نارا ذات لهب - وامراته حمالة الحطب - في جيدها حبل من مسد »



ولن يمضى وقت طويل ، حتى تمتلئ الجزيرة بأخبار ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التي وضعت فيها «آمنة» ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الاجيال حتى تصل اليها وقد أضافت اليها الليلي والايام جديدا من مبتدعات السمار ورؤى المحبين

وهذا زماننا يصغى في ذكرى تلك الليلة المباركة من كل عام ، الى مئات الالوف من الاصوات في شتى المحافل بمختلف بقاع الارض ، تترتل قصة المولد وتترنم بما ظهر عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زِيدَت السَّمَاءَ حَفْظًا ، وَرَدَّ عَنْهَا الْمَرْدَةُ وَذَوُّو النَّفُوسِ
الشَّيْطَانِيَّةِ ، وَرَجَمَتِ الْجَنِّ وَتَدَلَّتْ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْأَنْجَمُ الزَّهْرِيَّةُ ، وَاسْتَنَارَتْ بِنُورِهَا وَهَادَ الْحَرَمُ وَرَبَاهُ -
وَخَرَجَ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُورُ أَضْيَاءِ قُصُورِ الشَّامِ
الْقَيْصَرِيَّةِ ، فَرَأَاهَا مِنْ بَطَاحِ مَكَّةَ دَارِهِ وَمَغْنَاهُ - وَانْصَدَعَ
الْأَيَّوَانُ بِالْمَدَائِنِ الْكُسْرِيَّةِ ، الَّذِي رَفَعَ أَنْوَ شُرُوانِ سَمَكِهِ
وَسِوَاهُ - وَسَقَطَتِ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ مِنْ شُرَفَاتِهِ الْعُلُويَّةِ ، وَكَسَرَ
سَرِيرَ الْمَلِكِ كَسْرًا لَهَوْلَ مَا أَصَابَهُ وَعَرَاهُ - وَخَدِمَتِ النَّيْرَانُ
الْمَعْبُودَةُ بِالْمَمَانِكِ الْفَارَسِيَّةِ ، لَطْلُوعَ بَدْرِهِ الْمُنِيرِ وَمَحْيَاهُ ٥٠٠
وَيَهْتَفُ أَمِيرُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيُّ بَعْدَ نَحْوِ ثَلَاثَةِ عَشْرِ قَرْنًا
وَنَصْفِ قَرْنٍ مِنَ اللَّيْلَةِ الْغَرَاءِ :

بِكَ بَشَرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَزَيَّنَتْ
وَتَضَوَّعَتْ مَسْكًا بِكَ الْغُبَرَاءُ
يَوْمَ يَتِيهِ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ
وَمَسَاءُؤُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَاءُ
ذَعَرَتْ عُرُوشَ الظَّالِمِينَ فَزَلْزَلَتْ
وَعَلَّتْ عَلَى تَيْجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
وَالنَّارُ خَاوِيَةُ الْجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ
جَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ
وَالْآتَى تَتَرَى ، وَالْحَوَارِقُ جَمَّةُ
« جَبْرِيلُ » رَوَّاحٌ بِهَا غَدَاءُ !



وَفِي ضَيْحِيجِ الْإِحْتِفَالِ بِمَوْلِدِ « ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ » ، لَمْ تَنْسَ
« قَرِيشٌ » أَنْ تَسْأَلَ شَيْخَهَا « عَبْدِ الْمَطْلُبِ » : لَمْ يَدُلْ عَنْ

أسماء آبائه وسمى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول « السهيلي »
في « الروض الأنف » : « لا يعرف في العرب من تسمى
بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع
آباؤهم - حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ،
وبقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولدا لهم . .
وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد جد الفرزدق
الشاعر - ومحمد بن أحيدة بن الجلاح . . ومحمد بن حمران
ابن ربيعة . . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض
الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم ببعث
النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم
قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان ولد له ذكر أن يسميه
محمدا . . »



سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب :
أردت أن يكون محمودا في الأرض وفي السماء . .
ويعلق « بودلى » على تلك الإجابة قائلا : « . . . وأيا
كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمى به
ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذي قدر
لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين . . »

الرضيع

« ٠٠٠ فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد -
 صلى الله عليه وسلم - فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ،
 وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ،
 فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟
 » فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا
 غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى :
 والله انى لاكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ
 رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذنه
 » قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا
 فيه بركة ٠٠٠ »

« حليمة السعدية »

أخست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن
 الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود
 بأمجد غد ، كما انتهت رسالة « عبد الله » منذ أن أودعه جنينا
 فى أحشائها ، فأسلمت نفسها من جديد لأمشجان
 الذكرى ، الى حد أثر فى صحتها وان لم يفض بها الى التلف
 أو قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته

بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثرب ، حيث يزوران قبرفقيدهما العالي

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الحانق ، لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام . ويعلل « بودلى » ذلك بأنه أثر لما أصابها من حزن لموت زوجها ، فدفعته به الى « ثويبة » جارية عمه « أبى لهب » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب »

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد بن عبد الله » فزهدن فيه يتمه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف، فلقد مات «عبدالله» في حياة أبيه «عبدالمطلب» فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته فى مقببل العمر قبل أن يتأئل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريتيه الحبشية « بركة أم أيمن » ، وعددا من الابل والغنم ، وانها - كما يقول الدكتور هيكل - لثروة ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق .

وأرهب الحزن « آمنة » ، وهى ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفال الانحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر

وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب

أمه العامر بأشجاناه ، لولا أن عادت إحدى المرضعات تلتمس
« محمدا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار . تلك هي « حليلة »
بنت أبي ذؤيب السعدي « زوجة » الحارث بن عبد العزى :
أحد بنى سعد بن بكر بن هوازن »

ولندع « حليلة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو
يرويه عنها « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، نقلا عن سمع
« عبد الله بن جعفر بن أبي طالب » يقول :

« كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية ، أم رسول الله
صلى الله عليه وسلم التي أرضعته ، تحدث أنها خرجت من
بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من
بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك في
سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء
— أى عجفاء — معنا شارف لنا — أى ناقة مسنة — والله
ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا ،
من بكائه من الجوع ، وما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا
ما يغذيه . ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على
أتانى تلك . . . حتى قدمنا مكة تلتمس الرضعاء ، فما منا
امرأة الا وقد عرض عليها (محمد) — رسول الله صلى الله عليه
وسلم — فتأباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنا انما كنا
نرجو المعروف من أبي الصبى فكنا نقول : يتيسم ؟ !
وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى ،
فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لا كره
أن أرجع من بين صواحبنى ولم آخذ رضيعا . والله لا ذهاب
الى ذلك اليتيم فلا تخذه

« قال : لا عليك أن تفعلی ، عسى الله أن يجعل لنا فيه
بركة .. »

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملني على أخذه الا أني
لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلي ، فلما
وضعت في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ،
فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ،
وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك
فاذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى
انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة

« يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد
أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت (محمدا) عليها معى ،
فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمهم ، حتى
ان صواحبي ليقطن لى :

« يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست
هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقطن : والله ان لها لشأنا ... »

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا
من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا
به معنا ، شبعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان
(غيرنا) قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان
الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !
 « فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح
 غنمى شباعا لبنا • فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير
 حتى مضت سنتاه وفصلته »



هكذا نما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة
 بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطق
 - كما يقول بودى: ٢٩ - أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا ،
 بين أسياد البادية، هؤلاء الذين سيقا تلونه يوما ثم يخضعون
 له أخيرا ، ويحملون اسمه الى بقاع من الأرض لم يكونوا
 ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك •
 كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة
 فلا تحدثنا بشيء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون
 بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك
 على الانتهاء

على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنا أنها أقامت فى دار
 « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش
 من بعد رجيله

وانتهزت الأحزان المطوية فى أعماقها ، فرصة وحدتها
 الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم
 يكن لها عهد بمثله ابان حملها وحين كان « محمد » معها •
 ولكن أوان فطامه كان يدنو ويودا ، وهذه هى تشغل عن

أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلى همها بتمثله
اذ يعود فيملاً دنياها أنسا وضياء



واستبطأت عودة « حليمة » بفتاها ، ولعلها همت غير
مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى
رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز
المنتظر ، فلم تكذ أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ،
وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها
الحافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة
بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضوج

واذ أحست « حليمة » اعجاب الأم بصحة الصبى
العزيز ، راحت تحدثها عن جو « مكة » - وقد كان اذ ذاك
مرهق الحر شديد الوطأة - و « آمنة » تلقى اليها بعض
سمعها ، أن كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد .

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة:
- لو تركت بنى" عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه
وبأ « مكة » !

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة »
نظرة عتاب . كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق
للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تياس ولم تتراجع ، بل ألحت فى
استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها
من حنان وايتار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل

فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمـرح في
البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الأم تنظر الى ابنتها فتراه حقا قد أينع في جو
البادية الطليق ، ثم انشنت الى قلبها تسأله ان كان يطيق
بعد الوحيد الغالى ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنو
والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصبر ، فى
سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل
وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفى قلبها
وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليلة » راجعة الى مراعى بنى سعد ،
والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غببتها وفرحها ، اذ كانت
وقومها « شديدة الحرص على مكثه فيهم ، لما رأوا من بركته»



لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليلة »
من تلقاء نفسها بالصبي المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق
ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة
السريعة ، فقالت تسأل « حليلة » :
— ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى
مكثه عندك ؟

أجابت « حليلة » بعد تردد وتفكير :
— قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علئى ، وتخوفت
الاحداث عليه ، فأدبته اليك كما تحبين
ولم يقنع جوابها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشئ مما

خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنباتها
بالحبر :

قالت - فيما روى عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - :
« فوالله أنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه - من
الرضاعة - لفى بهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ،
فقال لي ولأبيه :

- ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض
فأضجعا ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه
فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتعسا
وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

- مالك يا بني ؟

قال :

- جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا
بطني ، فالتمسا (فيه) شيئا لا أدرى ما هو
فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لي أبوه :

- يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب ،
فألحقه بأهله . قبل أن يظهر ذلك به
فاحتملناه فقدمنا به . »



وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها
بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ،
فقالت لها بملء يقينها واطمئنانها :

« أفتخوفت عليه الشيطان ؟ »

أجابت من فورها :

— نعم

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى
لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ »

فهتفت « حليلة » :

« بلى »

واذ ذاك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت
به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« ٠٠٠ فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حمله
ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وانه لواضع يديه على الارض
رافع رأسه الى السماء ٠٠٠ دعيه عنك وانطلقى راشدة »

فظهر على « حليلة » أنها تذكرت شيئا كان قد غاب
عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمت ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفرا من
نصارى الحبشة رأوا ابني محمدا معي حين رجعت به بعد
فطامه ، فنظروا اليه وسألوني عنه ، وفحصوه مليا ثم
قالوا :

— لناخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ، فإن
له شأننا نحن أدري به وأعرف

فاختطفته منهم وقد هاجنى ذلك على رده اليك ، وهممت
أن أفعل ، لولا أن مضارب بنى سعد كانت أقرب الى منك ،

فعدوت نحوها ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلت به الحمى ،
 وأكثر المؤرخين المحدثين - من مستشرقين ومسلمين -
 يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الإنكار ، فاذا وجهوا
 بالذى رواه « ابن اسحق » عن بعض أهل العلم ، من أن
 الرسول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين
 طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند ،
 ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام
 ببني سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد
 حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه
 بأشهر . فبين الروايتين - كما يقول الدكتور هيكل ص ٧٣ -
 تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين
 الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة
 انسانية سامية ، وانه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ
 اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يـجـدون من
 المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة
 النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون
 ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر
 فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق
 مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، أن ليست لهم
 قلوب يعقلون بها » ١٠ هـ

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء
 فى نقد المتن ، فالحديث الذى أورده « ابن اسحق » مروى

عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحق ، « خالد بن معدان الكلاعي » وخالد هذا هو « أبو عبد الله الشامي الحمصي » المتوفى في العقد الأول من القرن الثاني الهجري ، وقد ساق الحديث مرسلًا فلم يذكر فيه اسم الصحابي الذي نقله عن الرسول

ومعنى هذا أن الحديث خبر واحد - وقد قيل انه لا يفيد علما ولا ظنا - كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابي ، مجهل بقول ابن اسحق : « عن بعض أهل العلم »

وهو بهذا كله ، يأتي في مرتبة من أضعف مراتب النقل ، فلا يلزم بشيء ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكره من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمداً بقى في البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليلة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشقطن ويخرج منها عضو ، وما نزال نشهد ذلك كل يوم في جراحات الجسم

ولعل الذي يمكن أن يقال هنا في اطمئنان ، هو أن القصة - سواء أجرت على لسان الرسول أم على لسان تابعي - فهي من قبيل التمثيل الذي يراد به نقاء السريرة

وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شيء غير المعنى الحرفي للآية القرآنية : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك »

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليلة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تؤمن « حليلة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين – وفيهم الدكتور هيكل من «أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سممت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يشير « بودلى » الى « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذه بركة »



الكتاب السادس

الرحيل

« حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين
مفتهم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم »
عائشة أم المؤمنين

لنرمق « آمنة » وهى تحتضن فتاها الوحيد
اليتم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى امده ، وعادت
به « حليلة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد
آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التى كانت تغشى دنيا
« آمنة » فى وحدتها وترملها الباكر ، واحسبها لم تكف عن
التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية
قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وقد بذلت « الأم » لولدها فى تلك الفترة ، أقصى
ما يستطيع من عناية ورعاية ، ان كان وحيدها ، ومناطق
أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتاب السيرة بما كان لها
من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبي الاسلام ، فيقول
شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة
بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبتة الله نباتا حسنا »

واثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » تباشير
النضوج المبكر ، ورأت فيه « آمنة » عندما بلغ السادسة من
عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووعدت
به فى أحلامها ورؤاها

اذ ذاك أدركت أن الاوان قد آن ، لىكى تؤدى واجبا

مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها
عن رحلة يقومان بها معا الى « يثرب » كى يزورا قبر
الحبيب الراقد

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه فى
زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف — فى الوقت نفسه —
الى أخوال أبيه المقيمين بـ يثرب ، وكانوا ذوى شرف هناك
وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر
فى « أبى وهب بن عمرو : خال عبد المطلب بن هاشم » :

ولو بأبى وهب أنخت مطسيتى
غدت من نداه ، رحلها غير خائب

بأبيض من فرعى لوى بن غالب
إذا حصلت أنسابها فى الدوائب

أبى لأخذ الضيم ، يرتاح للندى
توسط جداه فروع الاطايب

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر
رمالها ، حين بدأت « آمنة » تنهى لرحلة طويلة شاقة ،
تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد
« عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سنوات سبع

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات
الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون فى
أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن
شوقها الى زيارة يثرب ، كان أقوى من أن تغلبه عقبات
سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب

وشغلت أياها بتجهيز راحلتها وأعداد مئونة الطريق ،
ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرقوعة
تحجب الشمس عن الابن العزيز
وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو
الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن
بالرحيل ، ضمت إليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبهما
الجارية الوفية ، « بركة أم أيمن »



والقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها
فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما
الوحيد ، ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت
من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تنهى
للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطاً بضجيج المسافرين
ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئاً وثيداً كأنما يعز عليه أن
يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم
مكة خلف الجبال ألثم التى تحف بها ، استقبل الراحلون
طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا
سوق الشام فى ابانه ، ويعودوا الى حماهم الأمين ، وإلى
الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها
من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل ، ان هى سارت
حشيئاً فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجعت أرجاء البيداء

صدى الحداء الحنون ، فرقت قلوب الراحلين ، وسرت في
أبدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق
وعطفت « آمنة » على ولدها في حنو فياض ، ثم أغمضت
عينها تحلم باللقاء القريب !

وساعدها صمت الصحراء الا من رجع النغم ، على
استرسالها في الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ،
تنصت في الحداء الى نداء شجي يتناهى اليها من بعيد ،
فهفا قلبها الى الأليف النائي ، ورنّت عينها الى الأفق
الشمالي ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ،
تحنو ظلالها الوارفة على أعز قبر ، ويؤوى ثراها الطيب
أغلى رفات ...

فاذا جن الليل وصممت الحادي ونام الرفاق وهجع
الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت
نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها
روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحیی
الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !



وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها
واقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه
بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التي بدأت تتكشف
من وراء جبل « أحد » ، حيث ينبسط السهل وتطمئن
الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتتراقص عليها ظلال
النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى «يثرب» ، ريشما تزود بالراحة
والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك
« آمنة » ولدها وجاريتها فى حمى « بنى النجار » ...



ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ،
حتى أمسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض
فيه أبوه ، وتحجج الى القبر الذى حوى رفاتة ، ثم خلّت بين
ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به
الى ملاعبهم ومغانيمهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة
مثلهم فى المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر
الحبيب ، تناجيه حيناً ، وتبكيه أحياناً ، وهى على الحالين
راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يروى
ظماها ويريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا ، نفّست فيه عن
حزنها المكبوت ، وأسعفتها عينها بما شاءت من دمع ،
كما تمتع ولدها بلجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى
الخلال ...

وودت « آمنة » لو طال بها المقام فى « يثرب » ، ولعلها
فكرت - كما يقول بودلى - فى أن تبقى بها ، « لولا أن أسرة
محمد مكية ، ومكة هى الوطن ، فلا بد من العودة إليها »

ولا يدري أحد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الأخيرة قبل
أن تشد رحالها عائدة الى «مكة» ، وأغلب الظن أنها أفنتها فى

مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا أن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركب راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فخرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوا مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حذاء ...



واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدين ، هبت - فيما يقال - عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت نائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارئ ، مكن له من جسمها ما كانت تجد من لدغة الفراق الجديد

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست أنه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبء الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ...

وتشبثت به مغارقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ،

فأخذ الصبى العزيز يجفف دمعها بيده الحلوة الناعمة ،
مستمثرا لذة الحنان الغامر ، وكان ينسى فى نشوته رهبة
الموقف ...

وفجأة ... تراخت ذراعاها عنه ، فحذق فيها فراعته
أن بريق عينيها يوشك أن ينطفئ ، وأن صوتها يخفت
رويدا رويدا ، حتى يصير إلى حشجة هامسة
هنالك تضرع إليها أن تنظر إليه ، وأن تكلمه ، فيقال
إنها « نظرت لوجهه وقالت :

بارك فيك الله من غلام
يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بعون الملك العلام
فودى غداة الضرب بالسهم
بمئة من ابل سـوام »

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثة
همست فى حشجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى .
وأنا ميتة وذكري باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »
وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا .



وخيم على الكون صمت رهيب ، مرقته بعد حين ،
صرخة صبى مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها
فلا تلبى نداء ...

والتفت إلى « أم ايمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى

انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى
وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن
تقول دون أن تعى :

« انه الموت يا بنى » !

الموت ؟ !

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش
ولا أندمل فى قلبها الجرح مدى سبع سنوات طوال ؟ !
ذاك الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد
ولا لقاء ؟ !

ذاك الذى يمضى بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟
وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ،
كأنما غشيت غاشية من الخوف والرغبة فى حضرة الموت !
ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمسة ،
ملفعة بزرقه كابية خرساء !

ومد بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة
مشردة من غيوم شاحبة رداء !

هنالك أب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منها يحرق
فيها صامتا خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد
الراقد ، وتعصب الوجه الدابل ، وتغمض العينين المنطفئتين
وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية
« الأبناء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا
أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها

فتشبث بها ، يريد أن يستبقها أو يبقى معها !
وعلا نحيب القوم من اشفاق ورتاء ، وخلوا بينه وبين
أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحّوه عنها في رفق ،
وأضجعوها في لحدها
وهالوا عليها الرمال ...

... ..
ووجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين
الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الفبطة
والتهلل والاشراق ، يعود إليها اليوم وحيدا مضاعف
اليتيم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينه مشهد الموت فى
أعز من له ، وبلا المأساة الفسادة التى طالما حدثته أمه
عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج
منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه
الجديد الى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش
من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ...

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هذه ،
يوم يرجع إليها من مهجّزه عام الفتح ، ويدخلها ظافرا
منتصرا ، ليحطم الأصنام التى شوّهت جلال الحرم ، ويهتف
من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب
به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال

أجل ، وجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى
الحزين يعود إليها وحيدا مضاعف اليتيم ، فتلقياه جده
« عبد المطلب » محزون القلب ممزق الكبد ، وضمه إليه
مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على آخر
من بنيه وأحفاده ، « ومع ذلك بقيت ذكرى اليتيم أليمة
عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته
تلك الأولى ، حديث محب ليثرب ، محزون لما تحوى القبور
من أهله بها... »

وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار قبر
أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى...

وروى عن « عائشة » رضى الله عنها أنها قالت : « حج
بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على
قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه
وسلم... »



الكتاب السابع

النخالة

الى هنا ، تنتهى حياة « آمنة » على سطح هذه الارض ؛
وينصرف عنها التاريخ حينما ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين
عاما ، فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، كأم للنبي
البطل الذى تركته وحيدا يتيمًا فى بادية الجزيرة بين مكة
ويثرب ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السمماء
للمرسالة العظمى ، وبعثته بالدين الذى يتبعه اليوم ملايين
البشر من شتى الأجناس ، فى مشرق الارض ومغربها !

ولقد ثوى الرسول - بعد أن أدى رسالته - فى ثرى
يثرب ، كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يثوب
اليه كل حى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »
ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى
قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا
تقف خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكده يهتف
هتافه الخالد : « الله أكبر » « حتى كان النسر الرومانى -
كما يقول بودلى - يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة »
واذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من
جزيرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر
بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسة وتيجان الفراعين ،
ويندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمدية أسوار
الصين ، وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحة المحيط

الأطلسي فيشيدوا لدينهم دولة اسلامية في أسبانيا معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يقدون السير شمالا حتى يقرعوا ابواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات السلطان في قلب أوروبا المسيحية

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى أمام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعرف لدع الجزن ومساورة القلق ، ويدوق مرارة اليتيم ولوعة الثكل ، ويجب ويتزوج ، ويلد ، ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصائر دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا من تلك الجزيرة القاحلة الجرداء ، ولا تحس وجودا لأهلها الذين ينتقلون على الإبل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية الجرداء ...

وهذا « كيتانى » الذى قضى أكثر عمره فى جوار « الفاتيكان » وحى « القديس بطرس » يشد رحاله الى الجزيرة العربية فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يعرف هناك ، سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق انجليزى آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من « ابن آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارايل » رغم كونه النبى الأوحى بين أنبياء العالم الذى ولد فى ضوء

التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربى مبين ، يصر على بشريته ، وينحى عنه كل ما حف « بعيسى » قبله من قداسة والوهية

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبله أو بعده ، يغدو سلوكه اليومى - كما يقول هوجارت - سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور التافهة ، القانون الذى يراه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين حتى أيامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للإنسان ، فقلدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » ، كما تضع كل أنثى من البشر ، فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر أبيه ييثرب ، ثم خلفته وحيدا فى الطريق الى مكة !



ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسد الطاهر تلك الحفرة النائية فى جوف الصحراء ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويغلب الغناء ، ولا أحست وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة « آمنة » ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخیل اليهم أن الجن تنوح عليها منشدة :

نبكى الفتاة البرة الآمنة
ذات الجمال ، العفة الرزينة

زوجة عبد الله والقرينة
أم نبي الله ذى السكينة
لو فوديت لفوديت ثمينة
وللمنايا شفرة سنيينة
لا تبقين ظاعنا ولا ظعينة
الا أتت، وقطعت وتينه ..



سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، وأم النبي المبعوث
بآخر رسالات السماء !

بنت الشاطئ
(من الأمناء)



فهرس

صفحة

مناجاة	٨
سيدة الامهات	١١
بيئة ووراثة	٥٥
زهرة قریشی	٨١
العروس الازملة	١٠٩
أم الیتیم	١١٩
الرحیل	١٥٧
الخالدة	١٦٩

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بهادارالهلال لتيسر القراءة المفيدة للجميع . . ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج أنيق وطباعة متقنة ، فمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما (ماعدا كتاب زينب ١٠٠ مليم) بخلاف مصاريف البريد المسجل، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

السيد مهر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

عبقرية محمد (نفذت نسخته)
تأليف عباس محمود العقاد

غاندي : القديس الثاني
تأليف لويس فيشر

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زنايج

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

هرون الرشيد
تأليف الدكتور أحمد أمين

الزعيم أحمد عرابي (نفذت نسخته)
تأليف عبد الرحمن الرافعي

أبو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

بطلة كربلاء (نفذت نسخته)
تأليف الدكتورة بنت الشاطيء

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

اشعب أمير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

قلب النسر
تأليف أوكثاف أوبري

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعي

نفرتي ربة الجمال والتاج
تأليف صوفي عبد الله

القائد الاعظم محمد علي جناح
تأليف عباس محمود العقاد

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغي

زيتب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

عقيرة خالد
تأليف عباس محمود العقاد

مذكرات عرابي (جزء اول)
تأليف الزعيم احمد عرابي

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكاتب هـ.س. ارمسترونج

مذكرات عرابي (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد عرابي

كليوباترة في خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

عقيرة عمر
تأليف عباس محمود العقاد

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف

تأليف ادوارد سبنسر كولز

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم
الإشتراكات بدارالهلل شارع محمد بك عز العرب (المتديان) بالقاهرة وشركة
المصحافة المصرية بشارع النبی دانیال بالإسكندرية ، ومن شركة الصحافة
المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمي صاحب المكتبة
العصرية بشارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع
بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه
السيد علي نظام ببنایة العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ،
واكتشاك الصحف ما عدا الكتب التي نفدت نسخها كما ترى في هذا
الكشف

الكتاب القادم

فاطمة الزهراء
والفاطميون

تأليف الاستاذ
عباس محمود العقاد

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات - مركزها الرئيسي بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو في بيروت
(تلفون ٧٨-١٧) صندوق بريد ١٠١٢ -
أو بأحدى وكالاتها في الجهات الأخرى
(الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي
تسوى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمي - صاحب المكتبة
العصرية - بغداد

اللاذقية : السيد نخله سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص ٩٧ ب

**البحرين والخليج
الفاarsi :** السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400,
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

شاعت «سلسلة كتاب الهلال» أن تقدم لقرائها في مناسبة شعبان وموسمه الديني ترجمة لأول سيده أنجبت أعظم رجل في تاريخ الاسلام . . . وهي السيدة أمية بنت وهب وقد كانت في حياتها مثلاً عظيماً في راحة العقل ، وشرف النسب ، والجمال الأنثوي ، والصبر على الشدائد ، وقد عرفت بالنبل والطهر والخلق الكريم .

وإذا كانت حياة أمية بنت وهب قصيرة ، فإنها في قيمتها وفي العصر الذي عاشت فيه ، وفيما أحدثت بعدها من أحداث خالدة وتاريخ عظيم ، تعد حياة عظيمة ، وتعتبر ترجمتها من أهم التراجم ، وأولها بالعناية والبحث .

وقد عنيت السيدة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطيء بحياة هذه السيدة الجليلة ، فوضعت لها هذه الترجمة الوافية التي تناولت نشأتها ونسبها وزواجها بعبد الله ووفاته عنها . . . حياتها بعد وفاته وولادتها للنبي محمد ، وشهدت من أحداث في حياتها قبل الزوا وبعمده ، حتى لحقت بزوها خالدة في الحالدين .

